سلسلة
التراث

الأمير عبد القادر

رسالة إلى الفرنسيين

تصدير عبد العزيز بوتفليقة



منشورات ANEP

الأمير عبد القادر

رسالة الى الفرنسيين

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

تحقيق الأستاذ د. عمار الطالبي



منشورات ANEP

الرموز :

أ : النسخة المطبوعة سنة 1966 .
ب : نسخة الشيخ عبد القادر المجاوي.
ح : نسخة المكتبة الوطنية بباريس.

منشورات – 2007
ISBN : 9947-21-232-7
Dépôt légal: 1533-2005

تصدير

إن قرنا ونصف قرن من الزمن يفصلاننا عن الوقت الذي فرغ فيه الأمير عبد القادر من تأليف كتابه الموجه لأعضاء المجمع الآسيوي، وذلك بعد أن منحه هذا المجمع العلمي الفرنسي، قبل ذلك بقليل، العضوية فيه.

إن ال «رسالة إلى الفرنسيين» تميط اللثام عن جانب من شخصية الأمير عبد القادر لا يعرفه الجمهور العريض المعرفة الكافية، ذلك أن المحارب الذي استرخص حياته من أجل استقلال الجزائر يترك المكان ههنا للمفكر الثاقب الرؤية وللمفكر السياسي بالمعنى الجليل والحضاري للكلمة.

على خلاف كتاب «المرأة» الذي ألفه حمدان خوجة قبل ما يقارب العشرين عاماً من ذلك التاريخ، لا تندرج ال «رسالة إلى الفرنسيين» ضمن محاولة جديدة لقلب أو تكييف مسار الغزو الاستعماري.

فمؤلف الأمير، بعيدا عن أن يكون أهجية، لا يتضمن البتة أية إشارة إلى الوجود الفرنسي بالجزائر.

إن الأمير عبد القادر، وقد ترك جانبا الإشّارة إلى ظرف يعلم أنه لم يعد في وسعه التأثير فيه، بأي شكل من الأشكال، منذ أن وضع السلاح سنة 1847 ويقينا

منه أنه لا يجنى من المقاومة المسلحة سوى تبرير حرب الإبادة التي كان يمارسها الجيش الفرنسي، يسمو، بالخوض في مجهود جبار من التبصر الفكري ومن التحكم في المشاعر، إلى مستوى هيكلي، مستوى شرح الأسباب العميقة التي جعلت من عجز بطولة المقاومة الجزائرية الأولى للاحتلال الاستعماري الفرنسي عجزا محتوما لا مفر منه.

وفي هذا الصدد، وتلك هي الفائدة الأولى التي يجنيها في هذا العصر القارئ من ال «رسالة إلى الفرنسيين» يضع الأمير عبد القادر بوضوح كبير وبوجه مطلق الأصبع على مكمن قوة الغازي الفرنسي التي لا يمكن، مؤقتا، اكتساحها وعلى ضعف المقاومة الجزائرية الأولى العضال : الفجوة التقنية العلمية التي تفصلهما.

و يعترف ضمنيا، بشجاعة أدبية نادرة وبلباقة كبيرة إزاء أساطين العلماء الفرنسيين المقصودين برسالته، بأنه إن لم تكن نتيجة المواجهة المسلحة في صالحه، فذلك في المقام الأول لأن حرب الاستقلال الجزائرية الأولى جرت بين بلدين ينتميان إلى حضارتين إحداهما في حالة انحطاط بفعل نضوب ملكاتها الإبداعية العلمية والتكنولوجية، بينما تعيش الأخرى على وقع التجديد المستمر. وبعيدا عن أية موجدة، فإن الأمير عبد القادر، المسلم والإنساني العظيم، يبدي إعجابه الصريح بإنجازات العلماء والمهندسين الفرنسيين ونبذه لسلطان التقاليد العقيم الذي تتقوقع فيه المجتمعات العربية والذي جعل التوسع الاستعماري الأوروبي أمرا ممكن التحقيق.

وضمن منحاها المركزي، فإن ال «رسالة إلى الفرنسيين»، وتلك الفائدة الثانية التي يجنيها منها قارئ اليوم، يمكن قراءتها على أنها منافحة مجلجلة

لصالح تحديث المجتمعات العربية، ومجتمعنا على وجه أخص، كسبيل وحيد للانطلاق في نهضة حضارية هي وحدها الكفيلة بضمان استعادة الاستقلال السياسي.

ويروق لي أن أستشهد بهذه الفقرة التي آمل و أرجو أن يتم إدماجها في المقررات الدراسية كي تكون محل قراءة وتدارس ومناقشة وتدبر من قبل كافة التلاميذ في بلادنا : « فإن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات العقول لا نهاية لها، لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر...فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئا خطأ. والقول الصحيح هو : كم ترك الأول للآخر. ويقال لا كلمة أضر بالعلم من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئا، لأن هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلم على علم المتقدمين، ويقتصر الآخر على ما قدمه الأول وهو خطر عظيم، وقول سقيم.»

إن الأمير عبد القادر، وتلك هي الفائدة الثالثة التي يجنيها قارئ اليوم من ال «رسالة الفرنسيين»، لا يخلط التحديث هذا الذي يصبو إليه مع ما درجنا على تسميته ب «التغريب». فهو، وإن ندد بشرنقة التقاليد التي حبست فيها المجتمعات العربية نفسها، قد تراءى له، بما أوتي من تبصر جدير بالإعجاب، الانسداد الذي آلت إليه بعد فتوحات فرنسا وأوروبا المدهشة في الإبداع العلمي والتقني، انسداد عالم تطبعه المادية، عالم يفتقر للانطلاقة الروحية الموحدة، عالم جرد من السحر.

لقد وضع الأمير عبد القادر، بالتلميح وبصفة ضمنية حقا، المعالم الأساسية لحداثة إنسية قادرة، في الآن نفسه، على إضفاء السحر على العالم مجددا

وعلى اطراد تطوير ملكات التجديد والإبداع. وهو، بهذا، واحد من رواد نهضة الحضارة الإسلامية التي لا تزال في أولى بداياتها، تعتريها غالبا الاختلاجات، والتي تعتزم بلادنا أن تكون حلقة من حلقاتها الفعالة في الحوار الجاد والسخي مع سائر الحضارات.

عبد العزيز بوتفليقة

مقدمة المحقق

يبدو ان عناية الباحثين اتجهت إلى دراسة الجوانب العسكرية والسياسية من حياة الأمير عبد القادر، أكثر مما توجهت إلى بحث حياته العقلية والروحية، التي سجلها في مؤلفاته العديدة، وفي شعره، ولا يقل جهاده للنفس عن جهاده لجيوش الاحتلال، ولا يقل قلمه في سيرته عن سيفه في جهاده.

من مؤلفات الأمير عبد القادر التي ألفها في بروسة بتركيا أثناء إقامته بها، رسالة "ذكرى العاقل، وتنبيه الغافل". طلبت إليه تأليف هذه الرسالة الجمعية الآسيوية بباريس، وكان تاريخ تأليفها يوم الاثنين 14 رمضان سنة 1271 هـ /1855م وبين هذا في أولها : "بلغني أن علماء بريز وفقهم العليم الحكيم العزيز كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء (...) ثم أشار علي بعض المحبين-منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم فكتبت هذه العجالة"[1]. ثم نقلها غسطاف ديغا[2] إلى اللسان الفرنسي سنة 1858 وهو قنصل فرنسا بدمشق في ذلك العهد[3] ثم ترجمها رونيه خوام[4] سنة 1977 عنونها بعنوان آخر، وهو :"رسالة إلى الفرنسيين"[5] ويبدو من أسلوبها بالمقارنة مع أسلوب "المواقف" مثلا، أنها من مؤلفاته المبكرة، لأن أسلوبه في المواقف ناضج جدا ومتميز.

مصادره في هذه الرسالة "الإحياء" لأبي حامد الغزالي، وابن خلدون في مقدمته والرازي، وغير هذا من المؤلفات في التراث الإسلامي تحدث فيها عن المعرفة، وعن العقل الذي هو مصدر من مصادر المعرفة، أكد هذا الجانب على عادة المتكلمين المسلمين الذين يبدأون كتبهم ببحث "النظر" الذي يؤدي إلى العلم، وهو ما يسمى في زمننا هذا عند الغربيين بنظرية المعرفة، التي تبدأ بالإدراك الحسي، وتنتهي إلى المجردات والمفاهيم الكلية، وأشار فيها إلى تصنيف العلوم من جهة نظر إسلامية.

ومن أهم مباحث هذه الرسالة مبحث النبوة، التي هي مصدر آخر من مصادر المعرفة التي تتجاوز طور العقل، كما يتجاوز العقل مجرد الحس. ويبدو أنه يعنى بقراءة ابن سينا الذي رفع من شأنه ووصفه بأنه ذو عقل فائق[6]. كما أنه أثنى على العلماء الفرنسيين الذين يعنون عناية شديدة بالعلم العملي التطبيقي، :"وقد اعتنى علماء فرنسا، ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة، والفوائد الغريبة، فاقو بها المتقدمين، وأعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي، وحصل لهم بها الذكر الباقي"[7]. ولعله شاهد التقدم الصناعي في ذلك العهد في أروبا الأمر الذي جعله يسجل هذا في رسالته، أشار أيضا إلى أهمية :"علم القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع" وهو يذهب إلى أن العلوم العقلية لا تناقض العلم الشرعي[8]. لا يرضى عن التقليد، ويدعو إلى التجديد. كما أن أصل الديانات السماوية عنده واحد "أساس الديانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء"[9] بل يرى أنه لو استمع له الناس لرفع بينهم الخلاف الديني، :"ولو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا أخوانا ظاهرا وباطنا"[10] وذكر عدة مرات الفلاسفة القدماء كأفلاطون، وأرسطو، وجالينوس، ووصف أرسطو بأنه : :"كبير حكماء الخليقة"[11]. ويبدو أن الصداقة بينه وبين نابليون الثالث توطدت، ولذلك أثنى عليه، ودعا له :"وتمم الله عليهم (الفرنسويين) النعمة بسلطنة الملك الشهير العادل، أعلى الملوك الإفرنجية همة، وأبعدهم صيتا، وأنداهم يدا، وأطولهم سيفا، نابليون الثالث"[12].

وللرسالة قيمة تاريخية تصور مدى عناية هذا الفارس المجاهد بالمعرفة، التي بدأ بها حياته وختمها بها، ولم يجعله منفاه عن وطنه أن تخمد أفكاره، ويستسلم للقدر، بل إنه وصل جهاده بطريقة أخرى، طريق إعمال الفكر والتأليف إلى أن ختم حياته. بمصنفه العظيم "المواقف" الذي سجل فيه حياته الروحية ونفحاته الربانية. وتذوقه الرفيع للكتاب، والسنة، ووثاقة صلته بالله عزوجل.

منهج تحقيق هذه الرسالة

اعتمدنا في إخراج هذه الرسالة التي سبق نشرها دون تحقيق عدة مرات آخرها نشرة ممدوح حقي سنة 1966، دار اليقظة العربية، بيروت، اعتمدنا على نسخة مخطوطة كانت في مكتبة الشيخ عبد القادر المجاوي رحمه الله، وأوصى بها إلى مسجد بورواقية وكان قد حصل على هذا الكتاب كما قال : "أخذته من أبي بكر بن طالب بخط يد أبيه وخاله وغيرهما". بها 35 ورقة، وكل صفحة بها 21 سطرا جاء في

آخرها : "انتهى ما أردناه من هذه العجالة وكان الفراغ من تسويدها يوم الاثنين رابع عشر رمضان سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف، من هجرة من له العزة والشرف، محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وجميع النبيين والملائكة وسلم، نقلها لنفسه ولمن شاء الله من بعده من خط العلامة السيد قدور بن رويلة الجزائري، وهو نقلها من خط مؤلفها، عبد ربه الغالب محمد بن أحمد بن أبي طالب الحسني وكان الفراغ من نقلها يوم الخميس العشرين من رمضان المعظم سنة ثمانية وسبعين ومائتين وألف، انتهى، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ورضي الله عن العلماء العاملين".

وهذا النقل من خط المؤلف الذي نقله ابن رويلة له أهميته التاريخية ونسخت هذه النسخة بعد تأليفها بسبع سنين، إذ ألفها الأمير سنة 1271 هـ ونسخت هذه النسخة سنة 1278هـ

أما النسخة الثانية التي اعتمدنا عليها فهي النسخة التي أرسلها إلى الجمعية الآسيوية بباريس، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس رقمها 2345 وصفها لوبارون دوسلان[13] بأنها رسالة في العلوم والحضارة، وكتبت عنها جريدة لومنتير[14] تقريرا من تحرير السيد رينو[15] وأضيفت إليها ترجمة السيد ديغا[16] ورمزها ج. وهي مكتوبة بخط أحد المغاربة، بإشراف المؤلف الأمير عبد القادر وعنايته، مؤرخة بسنة 1855م مكتوبة على ورق بها 38 ورقة، في كل صفحة 21 سطرا. حجمها : 17 x 14.5 سم.

وقد تولى الأستاذ عبد الرزاق قسوم تصويرها لي من المكتبة الوطنية بباريس مشكورا ورمزها ج. أما النسخة الثالثة التي رجعنا إليها فهي النسخة التي طبعها الأستاذ ممدوح حقي سنة 1966م.

نرجو أن نكون موفقين في تحقيقنا لهذا النص من نصوص الأمير عبد القادر، ليكون أقرب إلى ما كتبه المؤلف وارتضاه، ولم نشتغل كثيرا بكتابة التعليقات والهوامش التي تثقل النص في صورته الصحيحة، ليمكن الاعتماد عليه في أي درس أو بحث يرمي إلى أن يكون علميا دقيقا، وقائما على أصل صحيح معتمد.

الجزائر 2004/03/21

عمار الطالبي

بسم الله الرحمان الرحيم

(1/ب) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله[17] وصحبه وسلم تسليما

يقول[18] عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر[19] بن أحمد بن محمد بن عبد القوى بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد[20] بن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن ادريس[21] بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط الرسول بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وأم الحسن فاطمة بنت محمد رسول الله بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم:

الحمد لله رب العالمين، ورضي الله تعالى عن العالمين أما بعد بلغني أن علماء بريز، وفقهم العليم الحكيم العزيز، كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء، فاهتززت لذلك فرحا، ثم اغتممت ترحا، فرحت من حيث ستر الله علي، حتى نظر عباده بحسن الظن إلي. واغتممت من كون العلماء استسمنوا ذا ورم، ونفخوا في غير ضرم، ثم أشار علي بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم، فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام.

فتشبهوا إن لم تكونوا منهم   إن التشبه بالكرام رباح

وسميت هذه الرسالة "ذكرى العاقل، وتنبيه الغافل" ورتبتها على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة[22]، وفي كل باب : فصل، وتنبيه، وخاتمة.

أما المقدمة ففي الحث على النظر وذم التقليد.

وأما الباب الأول : ففي فضل العلم والعلماء، وفيه فصل في تعريف العقل الذي به إدراك العلوم، وتكملة في القوى الأربع التي (2/أ) إذا اعتدلت في الإنسان يكون إنسانا كاملا. وتنبيه في فضل إدراك العقل على إدراك الحواس، وفضل مدركات الحواس. وخاتمة في انقسام العلم إلى محمود ومذموم.

وأما الباب الثاني : ففي العلم الشرعي، وفيه فصل في إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية وفيه تنبيه في معرفة النبي، وما يتعلق بالنبوة، وخاتمة في المكذبين للأنبياء.

وأما الباب الثالث : ففي فضل الكتابة، وفيه فصل في الكلام على كتابات الأمم، ومن وضعها، وما ينجر إلى ذلك. وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة في احتياج الناس إلى التصنيف، وما يتعلق به، وخاتمة الرسالة في انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف، واختلاف المذاهب.

مدخل

اعلموا أنه يلزم العاقل أن ينظر في القول، ولا ينظر إلى قائله. فإن كان القول حقا قبله، سواء كان قائله معروفا بالحق أو الباطل. فإن الذهب يستخرج من التراب، والنرجس من البصل، والترياق من الحيات، ويجتني الورد من الشوك. فالعاقل يعرف الرجل بالحق، ولا يعرف الحق بالرجل، والكلمة من الحكمة ضالة العاقل، يأخذها من عند كل من وجدها عنده، سواء كان حقيرا أو جليلا. وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامي بأمور منها أنه لا يعاف العسل إذا وجده في محجمة الحجام، ويعرف أن الدم قذر، لا لكونه في المحجمة، ولكنه في ذاته. فإذا عدمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرف الدم المستقذر، لا يكسبه تلك الصفة، ولا يوجب نفرة عنه. وهذا وهم باطل، غالب على أكثر الناس فمهما نسب كلام إلى قائل حسن اعتقادهم فيه قبلوه، وإن كان القول باطلا. وإن نسب القول إلى من ساء فيه (2/ب) اعتقادهم[23] ردوه وإن كان حقا، ودائما يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق. وهذا غاية الجهل والخسران.

فالمحتاج إلى الترياق إذا هربت نفسه منه حيث علم أنه مستخرج من حية جاهل فيلزم تنبيهه على أن نفرته جهل محض، وهو سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلوبة فإن العالم هو الذي يسهل عليه إدراك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، بين الجميل والقبيح في الأفعال، لا بأن يكون ملتبسا[24] عليه الحق بالباطل، والكذب بالصدق، والجميل بالقبيح، ويصير يتبع غيره ويقلده، فيما يعتقد وفيما يقول فإن هذه ما هي إلا صفات الجهال.

والمتبوعون من الناس[25] على قسمين: قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل، لا بأن يقلدوه، وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده، فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده. والأعمى لا يصلح أن يقود العميان. وإذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات، فتقليد الكتب[26] أولى وأحرى بالذم. وإن بهيمة تقاد[27] أفضل من مقلد ينقاد.

وأن أقوال العلماء والمتدينين متضادة متخالفة في الأكثر، واختيار واحد منها واتباعه بلا دليل باطل، لأنه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضا بمثله، وكل إنسان من حيث هو إنسان فهو مستعد لإدراك الحقائق على ما هي عليه، لأن القلب الذي هو محل العلم بالإضافة إلى حقائق الأشياء كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات، تظهر فيها كلها على التعاقب. لكن المرآة قد لا تنكشف فيها الصور لأسباب : أحدها نقصان صورتها، كجوهر الحديد قبل أن يدور، ويشكل، ويصقل. والثاني لخبثه وصدئه، وإن كان تام الشكل، والثالث لكونه غير مقابل للجهة التي فيها الصورة كما إذا كانت الصورة وراء المرآة. والرابع لحجاب(3/أ) مرسل بين المرآة والصورة. والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى به الصورة وجهتها.

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها صور المعلومات كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة: أولها نقصان في ذات القلب كقلب الصبي، فإنه لا تنجلي[28] له المعلومات لنقصانه. والثاني لكدورات[29] الأشغال الدنيوية، والخبث الذي يتراكم على وجه القلب منها، فالإقبال على طلب كشف حقائق الأشياء، والأعراض عن الأشياء الشاغلة القاطعة، هو الذي يجلو القلب ويصفيه. والثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة[30] المطلوبة. والرابع الحجاب، فإن العقل المتجرد[31] للفكر في حقيقة من الحقائق، ربما لا تنكشف له، لكونه محجوبا باعتقاد سبق إلى القلب وقت الصبا، على طريق التقليد، والقبول بحسن الظن. فإن ذلك يحول بين القلب والوصول إلى الحق، ويمنع أن ينكشف في القلب غير ما تلقاه بالتقليد. وهذا حجاب عظيم حجب أكثر الخلق على[32] الوصول إلى الحق، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية، رسخت في نفوسهم، وجمدت عليها قلوبهم، والخامس الجهل بالجهة التي يقع فيها العثور على المطلوب.

فإن الطالب لشيء ليس يمكنه أن يحصله إلا بالتذكر[33] للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها، ورتبها في نفسه، ترتيبا مخصوصا، يعرفه العلماء، فعند ذلك يكون قد صادف جهة المطلوب، فتظهر حقيقة المطلوب لقلبه. فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تصاد إلا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث، على مثال حصول النتاج من ازدواج الفحل والأنثى.

ثم كما أن من أراد أن يستنتج فرسا لم يمكنه ذلك من حمار، وبعير، بل من اصل مخصوص(3/ب) من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص، فكذلك كل علم، فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق مخصوص في الازدواج، يحصل من ازدواجهما العلم المطلوب.

فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج، هو المانع من العلم، ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة، فإنه إذا رفع المرآة قبالة وجهه لم يكن حاذى بها جهة القفا فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه، كان قد عدل بالمرآة عن عينيه، فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه المرآة في مقابلتها بحيث يراها، ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين، حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة مع ما فيها من صورة القفا في المرآة الأخرى، التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اصطياد العلوم وطلب إدراك الأشياء، طرق عجيبة فيها انحرافات عن المطلوب، أعجب مما ذكرناه في المرآة.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة الحقائق. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة الإلهية صالح لإدراك الحقائق. وكما أن الشيء يكون حاضرا بين يدي الإنسان[34] وإذا لم يحرك حدقته من جانب إلى جانب، تحريكات كثيرة، لم ير ذلك الشيء، فكذلك العقل ما لم يتحرك من معقول إلى معقول، لم[35] يدرك الشيء على حقيقته. وتلك التحريكات هي المسماة بالفكر، ونظر العقل. وكما أن العين الباصرة لا يمكنها إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيرات كالشمس، ونحوها، فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطإ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق، والهداية من الله تعالى.

الباب الأول

في فضل العلم والعلماء

اعلموا أن الإنسان من حيث حصوله في الحيز والمكان فجسم كسائر الأجسام، ومن (4/أ) حيث يتغذى، وينسل، فنبات، ومن حيث يحس، ويتحرك بالاختيار، فحيوان. ومن حيث صورته، وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط. وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل، ويختص عنه بخاصية الكر، والفر، وحسن الهيئة، فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية، فإن تعطلت منه نزل إلى مرتبة الحمار، فكذلك الإنسان يشارك الجمادات والحيوانات في أمور، ويفارقها في أمور، هي خاصيته، وبها شرفه. فما حصل له الشرف بعظم شخصه، فإن الفيل أعظم منه. ولا بشجاعته، فإن الأسد أشجع منه. ولا لأكله، فإن الجمل أوسع منه بطنا، ولا لجماعه، فإن أخس العصافير، أقوى منه جماعا، وإنما شرف الإنسان وخاصيته، التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم، وبها كماله. إذ كمال كل شيء إنما يكون بظهور خاصيته، التي امتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء[36] تلك الخاصية. فبقدر ظهور تلك الخاصية، يطلق عليه اسم "الكامل". وبحسب سترها فيه يخص باسم "الناقص" مثلا : الخاصية التي امتاز بها الفرس، وهي الحقيقة[37] الفرسية، أن يكون شديد العدو، ومعتدل القوام، في الطول والقصر، مدركا لإشارات[38] الراكب من : إرادة الكر، أو الفر، أو الهملجة، أو الحض، أو التقريب. فإذا ظهرت هذه الخاصية قيل : فرس كامل ثم الإعزاز والإهانة، تابعان للكمال والنقصان. وخاصية الإنسان، هي معرفة حقائق الأشياء، على الوجه الذي هي عليه، بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك، ويتيقن حقائقها منكشفة له[39]. وبكمال هذه الخاصية ونقصانها، يفضل بعض أفراد الإنسان بعضا، إلى أن يعد واحد بألف.

(4/ب) ولم أر أمثال الرجال، تفاوتت — إلى المجد، حتى عد ألف بواحد

وقوله[40]: والناس ألف منهم كواحد — وواحد كالألف إن أمر عنا

ولا شيء أقبح من الإنسان، مع ما فضله الله به، من القدرة، على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه، ويعريها من هذه الفضيلة.

ولم أر في عيوب الناس شيئا   كنقص القادرين على التمام

ولما كان العلم، هو كمال الإنسان كان كل إنسان محبا للعلم بالطبع، ومشتهيه، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ولو قليلا، ولو يعلم أن الذي وصفه بالعلم كاذب. ويحزن إذا دفع عن رتبة العلم، ويلتذ الإنسان بالعلم، لذاته ولكماله، لا لمعنى آخر وراء الكمال. ولا يخفى [41] على أهل العلم، أنه لا لذة فوق لذته، لأنها لذة روحانية، وهي اللذة الخالصة من جميع الشوائب المكدرات. وأما اللذة الجسمانية، فهي ؟عند التحقيق– دفع ألم. إذ لذة الأكل، دفع ألم الجوع. ولذة الجماع دفع ألم امتلاء أوعية المني به. بخلاف اللذة الروحانية، فإنها ألذ وأشهى. ولهذا كان بعض العلماء يقول عندما تنحل له مشكلات العلوم : أين الملوك، وأبناء الملوك، من هذه اللذة؟

ومن المعلوم، أن اللذات، بالإضافة إلى الإنسان، من حيث اختصاصه بها، ومشاركته لغيره، ثلاثة أنواع : عقلية، وجسمانية مشتركة مع بعض الحيوانات، وجسمانية [42] مشتركة مع جميع الحيوانات.

أما العقلية فالعلم بحقائق الأشياء، إذ ليس يستلذ بها السمع، والبصر، و الشم، والذوق، ولا البطن، وإنما يستلذ بها القلب، لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل. وهذه اللذة، أقل اللذات وجودا، وهي أشرف اللذات. أما قلتها، فلأن العلم لا يستلذ به إلا عالم. وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم، والمرتسمين برسمهم. وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تمل، والطعام يشبع منه فيمل، وشهوة النكاح يفرغ منها فتستثقل. والعلم والحكمة لا يتصور قط أن تمل وتستثقل. والمال يسرق أو يحرق. والولاية يعزل عنها. والعلم [43] لا تمد إليه أيدي السراق بالأخذ، ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح (5/أ) الأمن أبدا، وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم، فلفساد أمزجتهم، ومرض قلوبهم، لاشتغالهم باتباع الشهوات، واستيلائها على عقولهم. فإن القلب إذا كان صحيحا لا يستلذ إلا بالعلم، فإذا كان مريضا بسوء العادات، استلذ بغيره، كما يستلذ بعض الناس أكل الطين، وكالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل، ويراه مرا :

ومن يك ذا فم مر[44] مريض   يجد[45] مرا به الماء الزلالا

وإما لقصور فطنتهم، إذا لم تخلق لهم الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا[46] يدرك لذة الطيور السمان، ولا لذة العسل، ولا يطلب إلا اللبن.

الثانية لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات، كلذة الرياسة والغلبة، والاستيلاء وذلك موجود في الأسد، والنمر، وبعض الحيوانات، الثالثة لذة يشارك الإنسان فيها[47] جميع الحيوانات كلذة البطن، والفرج، وهذه أكثر اللذات وجودا، وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دب وتحرك حتى الديدان والحشرات. ولأجل اللذة والكمال الذي في العلم، صار للإنسان ميل طبيعي إلى العلم غالبا، لكن من الناس من ساعده فهمه، ومنهم من لم يساعده. وأما عدم الميل إلى العلم فلأمر عارض كفساد الطبع، أو بعد المكان عن الاعتدال. والمقصود من هذا معرفة فضيلة العلم ونفاسته، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها، لم يمكن أن يعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره[48] من الخصال. فلقد غلط من طمع أن يعلم أن فلانا حكيم[49]، وهو لم يعرف معنى الحكمة وحقيقتها، فالفضيلة مأخوذة من الفضل، وهو الزيادة، فإذا تشارك شيئان في صفة، واختص أحدهما بمزيد، يقال : فضله، وله الفضل عليه، مهما كانت زيادة فيما[50] هو كمال ذلك الشيء، كما يقال : إن الفرس أفضل من الحمار، بمعني[51] أنه يشارك في قوة الحمل، ويزيد عليه بقوة(5/ب) الكر، والفر، وشدة العدو، وحسن الصورة، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة في ظهره، لم يقل إنه أفضل، لأن السلعة زيادة[52] في الجسم، ونقصان في المعنى، وليست من الكمال.

والحيوان مطلوب لمعناه، وصفاته، لا لجسمه. فإذا فهمتم هذا، لم يخف عليكم أن العلم فضيلة، إن أخذ تموه بالإضافة إلى جميع الحيوانات، أو أخذ تموه بغير إضافة، فإنه فضيلة، وكمال على الإطلاق، وبه شرف العلماء والحكماء، وهو المرغوب فيه، المطلوب لذاته، لا لغيره، وغير خاف عليكم أن الشيء المرغوب فيه، ينقسم إلى ما يطلب ويرغب فيه لغيره، وإلى ما يطلب ويرغب فيه[53] لذاته. وإلى ما يطلب، ويرغب فيه[54] لذاته، ولغيره جميعا، والذي يطلب لذاته أشرف وأفضل.

والمطلوب لغيره، الدراهم والدنانير، فإنهما حجران لا منفعة لهما. ولولا أن الله سهل قضاء الحوائج بهما، لكانا والحجر بمنزلة واحدة، لأنهما لا يدفعان جوعا، ولا، بردا، ولا حرا بأنفسهما. وأما الذي يطلب لذاته فالعلم، فإنه لذيذ في ذاته.

وأما الذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة، من حيث إنها سلامة البدن عن الألم، ومطلوبة للمشي بها، والتوصل إلى الحاجات.

ومن دلائل شرف العلم ولوازمه، احترام العالم في الطباع، حتى أن أغبياء الناس[55] وأجلافهم[56] يصادفون طباعهم مجبولة على توقير شيوخهم، لاختصاصهم بعلم زائد مستفاد من التجارب[57] والبهائم بطباعها توقر الإنسان، لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجاتها. وإذا ثبت فضيلة العلم، كان تعلمه أفضل. وبيانه[58] أن مقاصد الخلق مجموعة في انتظام الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بانتظام الدنيا. وليس ينتظم[59] أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالهم وصناعتهم وحرفهم تنحصر في ثلاثة أقسام : أحدها أصول لا قوام للدنيا إلا بها[60]، وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم، والحياكة وهي (6/أ) للملبس، والبناء وهو للمسكن. والسياسة[61] وهي للتأليف، والاجتماع، والتعاون على أسباب أمر[62] المعيشة.

القسم الثاني : ما هي مهيئة[63] لكل واحدة من هذه الصناعات، وخادمة لها، كالحدادة، فإنها تخدم الزراعة، وجملة من الصناعات، بإعداد آلاتها وكالحلاجة والغزل، فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

القسم الثالث : ما هي متممة[64] للأصول كالطحن، والخبز للزراعة، وكالقصارة، والخياطة[65] للحياكة، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي، مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته، فإنها ثلاثة أقسام، إما أصول كالقلب، والكبد، والدماغ، وإما خادمة لها كالمعدة، والعروق، والشرايين، والأعصاب، والأوردة، أو مكملة لها ومزينة كالأظفار، والحاجبين، وأشرف الصناعات أصولها[66]، وأشرف أصولها السياسة. ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها، مالا تطلبه سائر الصناعات. فلذلك يستخدم صاحب هذه الصناعة جميع أصحاب الصناعات.

والسياسة على مرتبتين : سياسة الملوك والسلاطين، وتصرفهم في الخاصة والعامة، ولكن في ظواهرهم فقط لا في بواطنهم. والثانية سياسة[67] العلماء، وتصرفهم في بواطن الخاصة، ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والقهر. وشرف العلوم والصناعات يدرك بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الآلة التي يتوصل بها إلى معرفتها، كفضل العلوم العقلية، على العلوم اللغوية، إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع. وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة

على الصياغة. وإما بالنظر إلى المحل الذي فيه التصرف، كفضل الصياغة على الدباغة، إذ محل أحدهما الذهب، ومحل الآخر جلد الحيوانات الميتة.

وغير خاف (6/ب) أن العالم متصرف في قلوب الناس المتعلمين، ويدرك شرف العلم مطلقا من حيث هو علم بشيئين : أحدهما شرف الثمرة، والثاني قوة الدليل، وذلك كعلم الأحكام الدينية الشرعية، وعلم الطب. فإن ثمرة علم الدين السلامة في الدار الآخرة، وهي الحياة الأبدية. وثمرة الطب السلامة في الدنيا، وهي سلامة بدنية[68] منقطعة. فيكون علم الدين أشرف، لأنه سبب لسلامة أبدية، لا تنقطع. الثاني كعلم الحساب، وعلم النجم، فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته، وقوتها، وإذا نسب الحساب إلى الطب، كان الطب أشرف، باعتبار ثمرته. والحساب أشرف، باعتبار قوة أدلته، وصحتها. وملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف، وإن كان أكثر الطب بالظن.

فصل في تعريف العقل :

اعلموا أن العقل منبع العلم، وأساسه، ومطلعه. والعلم يجرى من العقل، مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين. وكيف يخفي فضل العقل، وأعظم البهائم بدنا، وأشدهم ضراوة، وأقواهم سطوة، إذا رأى صورة الإنسان، هابه لشعوره بفضله عليه، واستيلائه، بسبب ما خص به من إدراك الحيل.

واسم العقل يطلق على أربع معان بالاشتراك الأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به جميع البهائم، وهو الذي استعد به الإنسان لقبول العلوم النظرية. الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود[69] في ذات الطفل، المميز، بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد. وتسمية هذه العلوم عقلا ظاهر[70] فلا تنكر. الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من جرب الأمور، وهذبه تخالف الأحوال، يقال إنه عاقل في العادة، ومن (7/أ) لا يتصف به، يقال إنه غبي، جاهل، فهذا[71] نوع آخر من العلم يسمى عقلا. الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف الإنسان عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى تناول اللذة المضرة ويقهرها.

فإذا حصلت هذه القوة، يسمى صاحبها عاقلا، من حيث إن إقدامه وتأخره بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، وهذه المعاني الأربعة كلها من خواص الإنسان. ولفظ العقل موضوع في الحقيقة لتلك الغريزة. وإطلاقه على العلوم مجاز، من حيث إنها

ثمرتها. وهذه العلوم كأنها متضمنة في تلك الغريزة بالخلقة، ولا تظهر إلى الوجود إلا إذا جرى سبب يخرجها، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت، ومثاله الماء في الأرض، فإنه يظهر بالحفر، ويجتمع ويتميز بالحس[72] لا بأن يساق إليه شيء جديد، وكذلك الدهن في اللوز وماء الورد في الورد فكل آدمي خلق مجبولا على معرفة الأشياء على ما هي عليه.أعني أنها كالمتضمنة فيه لقرب استعداده للإدراك.

ثم لما كانت[73] معرفة الأشياء مركوزة في النفوس بالخلقة، انقسم الناس إلى من أعرض فنسي، وهم الجهال، وإلى من أجال خاطره فتذكر وهم العلماء. فكان هذا القسم كمن حمل شهادة فنسيها بسبب الغفلة، ثم تذكرها.

وحصول هذه العلوم للإنسان لها درجتان، إحداهما أن يشتمل قلبه على العلوم الضرورية الظاهرة، فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة، إلا أنها صارت قريبة الحصول ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم، والحروف المفردة دون المركبة، فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها. الثانية : أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب، والفكر فتكون كالمخزونة(7/ب) عنده، فإذا شاء رجع إليها. وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب، وإن لم يكن مباشرا للكتابة لقدرته عليها. وفي هذه الدرجة مراتب لا تحصى، يتفاوت العلماء فيها بقلة المعلومات وكثرتها، وشرف المعلومات وخستها.

واعلموا أن العقول متفاوتة بحسب خلقة الله تعالى، التي خلق الناس عليها فعقول الأنبياء، ليست كعقول سائر الناس، وعقل أبي علي بن سيناء فائق على كثير[74] من العقول يحكي أن الرازي قال يوما للآمدي : لم حسن هلاك الحيوانات وذبحها[75] للإنسان؟ فقال له الآمدي : إهلاك المفضول لمصلحة الفاضل، هو عين العدل. فقال له الرازي إذا[76] يحسن ذبحك أنت لأبي علي بن سيناء. والتفاوت حاصل في الأقسام التي يطلق عليها اسم العقل، إلا العلم بالضروريات فإنه لا يحصل فيه تفاوت بين العقلاء وكل من يدركه يدركه[77] إدراكا محققا من غير شك.

وأما قسم علم التجارب فتفاوت الناس فيه لا ينكر فإنهم متفاوتون بكثرة إصابة الرأي، وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوت في الغريزة وإما تفاوت في ممارسة الأمور.

وأما قسم استيلاء القوة العقلية على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه. ويكون سببه التفاوت في العلم المعرف بضرر تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر على ذلك من يساويه في العقل، إذا[78] لم يكن طبيبا، وإن كان يعتقد فيه مضرة على الجملة. ولكن لما كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد، فيكون الخوف معينا للعقل، على قمع الشهوات المضرة.

وأما قسم الغريزة التي قلنا إنه الأصل، فالتفاوت فيه لا طريق إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على الإنسان، ويطلع صبحه. ومبادئ إشراقه عند سن التمييز[79] وهو تمام الأسبوع[80] الأول، أعني سبع سنين، ثم لا يزال ينمو، ويزداد على التدريج إلى أن يتكامل، بقرب (8/أ) الأربعين سنة. ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه، ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس.

وعادة[81] الله جارية في جميع مخلوقاته بالتدريج. وكيف ينكر تفاوت الناس في الغريزة. ولو لا تفاوتها لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم. وإلى ذكي، يفهم بأقل إشارة وإلى كامل، يدرك حقائق الأشياء دون تعليم. فانقسام الناس إلى من يتنبه[82] من نفسه ويفهم. وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم، ولا يفيده التنبيه، كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء ويقوى، فيتفجر بنفسه عيونا. وإلى ما يحتاج إلى الحفر، ليخرج الماء في الآبار. وإلى ما لا ينفع فيه الحفر، وهو اليابس. وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها. فكذلك هذا الاختلاف في النفوس، في غريزة العقل.

والسبب الظاهر بحسب العادة التي أجراها الله باختياره وبما دل عليه الاستقراء في اختلاف الناس في عقولهم، وأخلاقهم وسيرهم، أحوال الشمس في الحركة، فإن الناس على ثلاثة أقسام. أحدها الذين يسكنون تحت خط الاستواء إلى ما يقرب من المواضع التي يحاذيها ممر راس السرطان، واسمهم العام السودان. ولأجل أن الشمس تمر على رؤوسهم، إما مرة أو مرتين في السنة، صارت أبدانهم وشعورهم سوداء، وهم أضعف الناس عقلا، وأوحشهم أخلاقا، وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممر راس السرطان، فعقولهم أكمل من الذين قبلهم، والسواد فيهم أقل، وطبائعهم معتدلة، وأخلاقهم مؤنسة، وأجسامهم نظيفة، وهم أهل الهند، واليمن، وبعض المغاربة، وكل العرب.

وأما القسم الثاني من أهل الأرض فهم الذين مساكنهم على رأس ممر السرطان، إلى محاذاة بنات نعش وهم سكان وسط هذه المعمورة، وهو المسمى بإيران شهر، كأهل العراق، والشام، وخراسان، واصبهان، فهم أكمل الناس عقلا، وألطفهم أذهانا، وهم مختلفون في الكمال، ويليهم في الكمال، سكان فرنسا، فإنهم وسط الإقليم الخامس، ويليهم في الكمال، أهل الأندلس، فإن بلادهم أخذت من الإقليم الخامس، والسادس. وأما القسم الثالث من سكان الأرض، فهم الذين مساكنهم محاذية لبنات نعش وهم الروس، والصقالبة، فعقولهم ناقصة، وأخلاقهم وحشية، وطبائعهم باردة، ولكثرة[83] بعدهم عن حر الشمس، صار البرد عليهم أغلب، والرطوبات أكثر، لأنه ليس هنالك[84] ما ينشفها[85]، وينضجها، (فلذلك صارت ألوانهم بيضاء، وشعورهم شقراء، سبطة، وأبدانهم عظيمة، رخوة[86]).

تكملة

قوة العقل هي إحدى القوى الأربع، التي إذا اعتدلت في الإنسان، يكون إنسانا كاملا. وهي قوة العقل، وقوة الشجاعة، وقوة العفة، وقوة العدل. فقوة العقل هي حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطإ في جميع الأحوال. والعدل حالة للنفس، بها يسوس الغضب، والشهوة ويحملها[87] على مقتضى العقل، في الاسترسال والانقباض. والشجاعة كون قوة الغضب، منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها. والعفة تؤدب[88] قوة الشهوة، بتأديب العقل، والشرع.

فمن اعتدال هذه القوى الأربعة[89] تصدر الأخلاق الجميلة كلها، فمن اعتدال قوة العقل، يحصل حسن (8/ب) التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأمور. ومن إفراطها المذموم تحصل الصفات المذمومة، والأخلاق القبيحة، مثل المكر، والحقد، والخداع، والدهاء، والحيلة. ومن تفريطها المذموم أيضا تصدر الصفات المذمومة، مثل البله، والغباوة، والغمارة، والحمق، والجنون. وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل، والجنون عبارة عن اختلال القوة العقلية المميزة بين الأمور الحسنة والقبيحة، المدركة للعواقب، بأن لا يظهر أثرها، وتتعطل أفعالها، إما بسبب نقصان خلق عليه، وإما بسبب خلط أو آفة. والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له رؤية صحيحة، في سلوك الطريق، الموصل إلى الغرض. وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره فاسدا. وأما الشجاعة فيصدر عنها الكرم والنجدة، والشهامة، وكبر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، وكظم الغيظ، والوقار، والتودد إلى الناس، وأمثالها، وهي صفات محمودة. وأما إفراط هذه القوة، وهو مذموم فيحصل منه : التهور، والصلف، والبذخ، والتكبر، والعجب، والاستشاطة. وأما تفريطها وهو مذموم أيضا، فيصدر منه المهانة، والمذلة، والجزع، والخساسة، وصغر النفس، والانقباض عن تناول الحق اللازم. وأما العفة فيصدر منها السخاء، والحياء، والصبر، والمسامحة، والقناعة، واللطافة، والمساعدة، والظرف، وقلة الطمع، وأما خروجها عن الاعتدال إلى الزيادة والنقصان، فيحصل منه الحرص، والشره، والوقاحة، والتبذير، والتقتير، والرياء، والملق، والشماتة (9/أ) والتذلل للأغنياء، واحتقار الفقراء، وغير ذلك.

فأمهات الفضائل هي هذه الأربعة : العلم، والشجاعة، والعفة، والعدل. فمن جمع هذه الأربعة على الكمال، استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا، يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به[90].

تنبيه

من الظاهر البين عند أصحاب العقول السليمة، أن النفس إنما دخلت هذا العالم الجسماني، لتكتسب العلم النافع، والعمل الصالح. وأشرف العلوم النافعة، معرفة الله تعالى، ومعرفة حكمته في أفعاله، وفي خلق السماوات والأرض، وما فيهما وما بينهما. وهذه المعرفة لا تدرك بحاسة من الحواس، وإنما تدرك بالعقل، فكان العقل لهذا أشرف ومدركاته أشرف. ولما كان البدن مركبا للنفس، وآلة لتحصيل الأعمال الصالحة، خلق الله للإنسان الحواس الظاهرة، والباطنة وأكرمه بالعقل الذي هو أشرف من الكل. فخلق له حاسة اللمس، حتى إذا مسته نار محرقة، أو سيف جارح، أحس بذلك، وهرب. وهذا أول حس يخلق للحيوان فلو لم يحس أصلا لم يكن حيوانا.

وأقل درجات الإحساس أن يحس بما يلاصقه، ويماسه، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم، وهذا موجود في كل حيوان ولو لم يخلق للإنسان إلا هذا الحس لكان ناقصا، لا يقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنه، بل ما يماس بدنه يحس به، فيجتذبه إلى نفسه فقط. فافتقر إلى حس يدرك به ما بعد عنه. فخلق الشم إلا أنه يدرك به الرائحة، ولا يدري من أي جهة جاءت فيحتاج إلى (9/ب) أن يطوف كثيرا من الجوانب، وقد يعثر على الغذاء الذي شم رائحته، وقد لا يعثر، فيكون ناقصا، لو لم يخلق له إلا ذاك[91]، فخلق له البصر، ليدرك ما بعد عنه، ويدرك جهته، فيقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق له إلا هذا لكان ناقصا، إذ لا يدرك ما وراء الجدران[92]، والحجب، فخلق له السمع، حتى يدرك به الأصوات من وراء الجدران[93]، والحجب، عند جريان الحركات، لأنه لا يبصر الأشياء حاضرا.

وكل هذا ما كان نافعا له، لو لم يكن له حس الذوق، إذ يصل الغذاء إليه، فلا يدرك أنه موافق، أو مخالف فيأكله فيهلك كالشجرة تصيب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فيجتذبه، وربما يكون ذلك سبب هلاكها ويبسها. وكل هذا لا يكفيه لو لم يخلق في مقدمة دماغه إدراك آخر، يسمى حسا مشتركا، تتأدى إليه هذه المحسوسات، وتجتمع فيه، فإنه إذا أكل شيئا أصفر مثلا، فوجده مرا غير موافق له فتركه، فإذا رآه مرة أخرى لا[94] يعرف أنه مضر مر[95] ما لم يذقه ثانيا لو لا الحس المشترك، لأن العين تبصر الصفرة،

ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة، ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم، تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا، حتى إذا رأى الصفرة حكم بأنه مر، فيمتنع عن تناوله ثانيا.

وهذا كله تشاركه فيه الحيوانات، إذ للشاة هذه الحواس، فلو لم يكن له إلا هذا لكان ناقصا، لأن هذه الحواس، إنما هي للحاضر، فأما الغائب وإدراك العواقب فلا. ولما كان المقصود الأعظم من خلق الإنسان هو معرفة خالقه، وعبادته، والعبادة[96] لا تكون لمن لا يعرف[97] فأكرم[98] الله الإنسان، وميزه بصفة أخرى أشرف من الكل، وهي العقل فبه يعرف الإنسان خالقه، ويدرك (10/أ) المنافع والمضار في الحال، والمآل، إذ أنفع الحواس وأبعدها مدركا العين الباصرة، والعقل اشرف منها لأن البصر لا يدرك نفسه، ولا يدرك إدراكه، ولا يدرك آلته.

أما أنه لا يدرك نفسه ولا إدراكه[99] فلأن القوة الباصرة وإدراكها ليسا من الأمور المبصرة، بالعين الباصرة. وأما أنه لا يدرك آلته فلأنها[100] هي العين والقوة الباصرة في العين لا تدرك العين وأما العقل فإنه يدرك نفسه، ويدرك إدراكه، ويدرك آلته في الإدراك، وهي القلب والدماغ. وأيضا البصر لا يدرك الكليات، والعقل يدركها، ومدرك الكليات أشرف من مدرك الجزئيات. أما أن البصر لا يدرك الكليات فلأن البصر، لو أدرك كل ما في الوجود، فهو ما أدرك الكل، لأن الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود، في الماضي، والحال والاستقبال.

وأما أن العقل يدرك الكليات، فلأنا نعرف أن الأشخاص الإنسانية مشتركة في الإنسانية، ومتمايزة بخصوصياتها، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فالإنسانية، من حيث هي إنسانية، مغايرة[101] لهذه المشخصات. وأما أن إدراك الكليات أشرف، فلأن إدراك الكليات ممتنع التغير، وإدراك الجزئيات واجب التغير، ولأن إدراك الكلي، يتضمن إدراك الجزئيات الواقعة تحته، لأن ما ثبت للماهية، يثبت لجميع أفرادها. وأيضا الإدراك الحسي غير منتج، لأن[102] من أحس بشيء لا يكون ذلك الإحساس سببا لحصول إحساس آخر[103]، بل لو استعمل آلة الحس مرة، لأحس به مرة أخرى، وذلك لا يكون إنتاج إحساس[104] آخر. وأما أن الإدراك العقلي ينتج، فلأنا إذا عقلنا أمورا، ثم ركبناها في عقلنا، توسلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخر[105] (10/ب) وهكذا كل تعقل حاصل، فإنه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر. وأيضا الإدراك[106] الحسي لا يسع الأمور الكثيرة، والعقل يتسع لها، أما أن الحس لا يتسع لها، فلأن البصر إذا توالى عليه

ألوان كثيرة التبست عليه، فأدرك لونا كأنه حاصل من اختلاط هذه الألوان. والسمع إذا توالت[107] عليه أصوات كثيرة التبست عليه ولم يحصل التمييز، والعقل يتسع لها ولأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل لأنه مهما حصلت معرفة أخرى، أو ازدوجت[108] مع معرفة أخرى، حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى الإنتاج[109] وتتمادى[110] العلوم. لكن هذا لمن يقدر على استثمار العلوم، ويهتدي إلى طريق التفكر. وإنما منع أكثر الناس من زيادة العلوم، لفقدهم رأس المال، وهي[111] المعارف التي تستثمر العلوم، كالذي لا رأس مال معه فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك راس المال، ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا، فكذلك قد يكون مع الإنسان ما هو رأس مال العلوم، ولكن لا يحسن استعمالها وتأليفها، وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج[112]. وأيضا البصر لا يدرك الشيء المرئي، مع غاية القرب، ولا مع غاية البعد. والعقل عنده القرب والبعد سواء، فإنه يدرك ما فوق السموات، وما تحت الأرض ويدرك ذات الله تعالى، مع كونه مقدسا عن القرب والبعد، والجهة. وأيضا الحس قد[113] يقع في إدراكه الغلط كثيرا، فإنه يدرك الصغير كبيرا، كالنار البعيدة في الظلمة، وكالعنبة في الماء، ترى كالأجاصة، وكالنقطة من النار، إذا كانت على رأس عود وحركته باستقامة، فإنه يرى خطا ممدودا من نار، وإذا حركته على دائرة بسرعة، يرى دائرة من نار، ولا وجود (11/أ) لهما[114] أصلا. ويرى المعدوم موجودا كالسراب في الصحراء، فإنه يرى ماء ويرى المتحرك ساكنا، كالظل يراه ساكنا وهو متحرك. ويرى الثلج أبيض، ولا بياض فيه أصلا، فإنه مركب من أجزاء شفافة، لا لون لها، وهي الأجزاء المائية الرشية. فلولا العقل لكان معتقدا صحة ما أدركه حسه مخطئا خطأ فاحشا، ولهذا قال أفلاطون، وأرسطو، وبطليموس، وجالينوس، الحسيات غير يقينية بمعنى أن جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس، بل لابد مع الإحساس من أمور تنضم إلى الحس، لا نعلم ما هي وحينئذ يجزم العقل بما جزم به من[115] المحسوسات.

وهذه القوة العقلية باعتبار إدراكها للكليات، والحكم بينها بالنسبة السلبية، والإيجابية، تسمى العقل النظري. وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية، مما ينبغي أن يفعل، أو يترك تسمى العقل العملي[116]. وقد اعتنى علماء فرنسا، ومن حذا حذوهم، باستعمال العقل العملي، وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة، والفوائد الغريبة، فاقو بها المتقدمين، وأعجزوا المتأخرين. رقوا بها أعلى المراقي، وحصل لهم بها الذكر الباقي. فلو استعملوا مع هذا العقل النظري، في معرفة الله، وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السماوات والأرض، وما يلزم للإله من الكمال، وما يتقدس عنه

من النقص، وما يمكن في حقه أن يفعله، وأن لا يفعله، لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك، والمزية التي لا تشرك. ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية، حتى إنهم[117] لا يسمع منهم لها ذاكر، ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر. حتى لقد حكى عن بعض* علماء الوقت(11/ب) الآن أنه قال : إن الضوء يمشي من الجسم المضيء إلى ما يقابله من الأجسام، كذا[118] وكذا متراً في كذا وكذا ثانية[119]، أو دقيقة، وتلقى العامة[120] منه هذا القول بالقبول. فلو استعمل هذا العالم قوته النظرية في حقيقة هذا الضوء، لم يحكم بانتقاله، لأن الضوء لا يخلو إما أن يكون جسما أو عرضا ولا ثالث لهما[121]. فلو كان الضوء عرضا[122] يمشي من الجسم المضيء إلى ما يقابله من الأجسام، كان لا ينتقل إلا بانتقال الجسم الذي قام به ذلك العرض باتفاق العقلاء، إذ حقيقة العرض هو ما لا يقوم بنفسه ولو كان الضوء جسما كان لا يداخل الأجسام ولو دخل الضوء إلى بيت من طاق فسد إنسان الطاق دفعة واحدة، كان يلزم أن تبقى الأجسام المضيئة في البيت على تقدير أن الضوء جسم، وهو غير واقع بالمشاهدة، وإنما حقيقة الضوء عرض يحدث في ظاهر الجسم الكثيف، من مقابلة الجسم المضيء له، إذا كان بينهما جسم شفاف. وإنما يحدث ذلك الضوء من السبب الذي يحدث منه ضوء الجسم المضيء كالشمس والسراج. فالذي يخلق الضوء في الجسم المضيء يخلق الضوء في الجسم المقابل له. فالضوء عرض يحل[123] في الجسم الكثيف، ولا يحل في الهواء، كما توهمه قوم، بدليل أن القاعد في غار طويل في الجبل، لا يدري بالليل، ولا بالنهار، خارج الغار، والهواء يدخل الغار بلا شك.

خاتمة

العلوم تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم. فالعلم المحمود ما يرتبط به مصالح الدين والدنيا، كالطب، والحساب، وكل علم لا يستغني (12/أ) عنه في قوام أمر الدين والدنيا، كأصول الصنائع[124] من الفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة[125] بل الحجامة من العلوم اللازمة، فلو خلا البلد عن الحجام تسارع الهلاك إلى أهل ذلك البلد. فإن الذي[126] أنزل الداء أنزل الدواء، و أرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فيقبح التعرض للهلاك.

ومن المعلوم، أن الإنسان مدني بالطبع، فهو محتاج إلى التمدن، والاجتماع مع أبناء جنسه. ومهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد، وتعاملوا، تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة الزوج على الزوجة، ورياسة الأبوين على الولد، لأنه ضعيف، يحتاج إلى من يقوم عليه. ومهما حصلت الرياسة على عاقل أفضى إلى الخصومة، بخلاف الرياسة على البهائم، إذ ليست لها قوة المخاصمة، ولو ظلمت. أما المرأة فتنازع الزوج، وأما الولد فينازع الأبوين، هذا في المنزل.

وأما أهل البلد فيتعاملون في الحاجات، ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك، لتقاتلوا وهلكوا. وكذلك الرعاة، وأرباب الفلاحة، يتنازعون على الأرض[127]. ثم قد يعجز بعض الناس[128] عن الصناعة بعمى أو مرض، أو هرم. ولو ترك ضائعا لهلك، ولو وكل تفقده إلى الجميع لفرطوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه، لكان لا يذعن له فحدث من هذه الأمور الحاصلة بالاجتماع[129] علوم، منها علم المساحة التي بها تعرف[130] مقادير الأرض، لتمكن[131] القسمة بينهم بالعدل. ومنها علم الجندية لحراسة البلد بالسيف. ومنها صناعة الحكم لفصل الخصومات. ومنها علم القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع.

وهذه أمور مخصوصة لا يقوم بها (12/ب) إلا مخصوصون بالعلم والتمييز. وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى، ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا، تعطلت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات وطلب القوت، تعطلت البلاد عن الحراس وهلكت

الناس. فلزم أن يمدهم أهل البلد بأموالهم، ليحرسوهم، فتحدث الحاجة إلى الخراج، ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج علوم أخر. إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على أرباب الأموال، وهم العمال، وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة، وإلى من يجمع عنده إلى وقت التفرقة وهم الخزان، وإلى من يفرق بالعدل، وهو الفارض للعساكر.

وهذه الأعمال لو تولاها أناس كثيرون، لا يجمعهم إنسان واحد لا نخرم النظام. فحدثت الحاجة إلى ملك[132]، يدبرهم بالعلوم السياسية التي تلزم معرفتها كل ملك. فيكون الخلق كلهم بالنسبة إلى العلوم المحتاج إليها ثلاثة طوائف : الفلاحون، والمحترفون. والثانية الجند الحماة بالسيوف[133]. والثالثة المترددون بين الطائفين بالأخذ والعطاء.

ثم حدث بسبب البيع والشراء الحاجة إلى التقدير، فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فمن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو؟ فلا بد من حاكم عدل، يتوسط بين المتبايعين، يعدل أحدهما بالآخر. فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال، ويحتاج إلى ما يطول بقاؤه. وأبقى الأموال المعادن. فاتخذت النقود من الذهب، والفضة، والنحاس. فحدثت الحاجة إلى دار الضرب، والنقش والتقدير، وعلم المعادن، واستخراجها، وتصفيتها.

فهذه هي علوم الخلق. وهي معايشهم وكلها محمودة ثم إن هذه العلوم لا تمكن[134] مباشرتها إلا بالتعلم والتعب في الابتداء. وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به، أو يمنعه مانع فيبقى جاهلا، وعاجزا عن العلوم التي يتكسب[135] بها، فيحتاج إلى أن يأكل مما سعى فيه غيره، فيحدث لذلك حرفتان خسيستان منمومتان وهما اللصوصية والكدية.

ثم إن الناس يحرزون أموالهم عن اللصوص، والمكدين فاحتاجوا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير[136]. أما اللصوص فمنهم من يطلب أعوانا، وتكون له شوكة، فيجتمعون، ويقطعون الطريق، كالأعراب، والأكراد، ومن فعل فعلهم وأما الضعفاء فيستعملون الحيل إما بنقب الدور، والأسوار، أو الصعود عليها وقت غفلة الناس، أو يكون طرارا. وأما المكدي فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره، قيل[137] له اعمل،

وكل ومالك وللبطالة فاحتاج المكدون إلى حيلة في استخراج أموال الناس. فمنهم من يظهر العمي، والفلج، والمرض، وهو خال عن ذلك، ليكون ذلك سببا للرحمة عليه[138].

ومنهم من يظهر أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيسخون لهم بالمال، وذلك يكون بالتمسخر والمحاكاة، والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة مع حسن الصوت، والشعر الموزون له تأثير في النفس، ويدخل في هذا الوعاظ الذين يصعدون المنابر، إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع، وليس مرادهم إلا[139] اكتساب الدينار[140] والدرهم.

وأما العلم المذموم، فاعلموا وفقكم الله، أن العلم لا يذم لعينه من حيث إنه علم. إذ لا شيء من العلوم من حيث إنه علم بضار، ولا شيء من الجهل من حيث إنه جهل بنافع، لأن في كل علم منفعة، إما في المعاد، أو في المعاش، أو الكمال الإنساني، إذ كل علم يفيد (13/ب) النظر فيه عقلا مزيدا.

وجميع العلوم الصناعية والنظرية تفيد عقلا. وإنما يذم بعض العلوم لأحد أسباب، إما لكونه مؤديا إلى ضرر، إما بصاحبه، أو بغيره، كعلم السحر، والطلسمات. وهو حق، صحيح، شهدت بصحته المشاهدة. وهو علم يستفاد من العلم[141] بخواص الجواهر[142]، وبأمور حسابية، في مطالع النجوم، فيحدث من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة، أحوال غريبة، وتأثيرات عجيبة. أعني أن تأثير النفوس البشرية في عالم العناصر، إن كان بغير معين من الأمور السماوية فهو السحر، وإن كان بمعين من الأمور السماوية فهو الطلسمات، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنه معرفة، ليست[143] مذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق. وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين، والكلدانيين، وفي أهل مصر من القبط، وغيرهم، وكان لهم فيها التآليف الكثيرة. وهذا العلم مهجور في الملة الإسلامية. ولم يترجم لنا من كتبهم إلا القليل، إلى أن ظهر بالمشرق، جابر بن حيان، كبير السحرة[144] في هذه الملة فتصفح كتب هذا العلم واستخرج الصناعة ووضع فيها التآليف، وأكثر الكلام فيها، وفي صنع الكيمياء، لأنها من توابعها، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى، إنما تكون بالقوى النفسانية[145]، لا بالصناعة العملية. وإما لكون المتعلم، يقصد بالعلم فوق غايته، كمن يقصد بعلم النجم الاطلاع على المغيبات، والحوادث الآتية، وغاية علم النجم، الاهتداء في ظلمات البر، والبحر، وتسيير الشمس، والقمر، في المنازل[146]، والبروج، للاستعانة على الزراعة ونحوها. وأقل أحوال من يقصد بعلم النجم الاطلاع على المغيبات، أنه

خوض في فضول لا ينفع. فإن المقدور واقع والاحتراز منه غير ممكن(14/أ) وأحكام النجوم ظن خالص، والحكم بالظن، حكم بجهل. وما يتفق من إصابة منجم على الندور[147] إنما هو اتفاقي. لأن المنجم يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقبها، إلا بعد شروط كثيرة لا يطلع المنجم عليها فإن قدر الله بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر أخطأ ويكون ذلك كظن الإنسان، أن السماء تمطر اليوم، إذا رأى السحاب يجتمع، وينبعث من الجبال. وربما يحمى النهار بالشمس، ويذهب السحاب، وربما يكون المطر، فالمنجم باستدلاله[148] بالنجم على الحوادث، كاستدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث[149] من المرض. فتارة يكون وتارة لا يكون مع أن الطب أكثر أسبابه مما يطلع الأطباء عليه. وإما لكون العلم عزيز المنال[150]، رفيع المرقى ويتعاطاه من ليس من أهله فيتضرر[151].

الباب الثاني

في إثبات العلم الشرعي

اعملوا وفقكم الله أن العقل، وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ فثم علوم لا يصل إليها، ولا يهتدي إلى الاطلاع عليها إلا بتصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد إليهم. بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة على علم العقل، الذي قلنا إنه متضمن في غريزة العقل، يجده مهما صرف عقله في اكتسابه، والعقل مع عزله عن علوم الأنبياء إلا باتباعهم مستعد لقبول علومهم، والانقياد إليها، والاستحسان لها، مهما عرفوه إياها[152].

وبيان أن ثم علوما زائدة وراء علم العقل، أن الله تعالى خلق الإنسان خاليا لا خبر[153] له عن[154] مخلوقات الله، وهي كثيرة لا يحيط بها إلا خالقها. فيخلق[155] له حاسة اللمس، فيدرك بها الملموسات وهي أجناس كثيرة (14/ب) ولا تدرك الأصوات، ولا الألوان، فهي كالمعدومة في حقه. ثم يخلق له البصر، فيدرك به بعض الموجودات إلى أن يتجاوز المحسوسات، فيخلق فيه التمييز و[156]هو طور آخر، فيدرك به أمورا وراء المحسوسات، لا يوجد[157] شيء منها في المحسوسات. ثم يترقى إلى طور آخر، وهو طور العقل، فيدرك به أمورا لا توجد في الأطوار التي قبله[158]، ووراء العقل طور آخر، وأمور أخر، العقل معزول عنها، ولا يصل إليها بنفسه، بل بغيره، كما عزلت الحواس من مدركات العقل. فالعلوم التي تحل في العقل تنقسم إلى عقليه، وشرعية. أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد، وسماع وهي تنقسم إلى ضرورية كعلم الإنسان، بأن الشخص الواحد[159] لا يكون في مكانين في آن واحد، وبأن الشيء لا يكون موجودا معدوما. وهذه علوم يجد الإنسان نفسه عارفا بها. ولا يدري من أين حصل له ذلك أعني لا يدري سببا قريبا، وإلا فليس يخفى أن الله هو الذي خلقه، وهداه إليه، وإلى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم، والاستدلال والنظر.

وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء، وذلك يحصل بالتعليم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل، والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع وبهما يكمل العقل ويسلم من الأمراض فالعلوم العقلية غير كافية في السلامة[160]، وإن كانت محتاجا إليها. كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة البدن، بل يحتاج الإنسان إلى[161] معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء. إذ مجرد العقل لا يصل إليه. ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية. ولا غنى بها عن العقل. فالذي يدعو[162] الناس إلى التقليد المحض، مع عزل العقل، جاهل. والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور (15/أ).

فإياكم أن تكونوا من أحد الفريقين، وكونوا جامعين بينهما، فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية. والشخص المريض يتضرر بالغذاء إذا فاته الدواء. وقلوب الخلق كلها مرضى ولا علاج لها إلا بالأدوية، التي ركبها الأنبياء. وهي وظائف العبادات. فمن اكتفى بالعلوم العقلية تضرر بها، كما يتضرر المريض بالغذاء. كما وقع لبعض الناس فإنهم[163] قالوا الإنسان إذا حصل له المعقول، وأثبت للعالم صانعا، وصل إلى الكمال المطلق، فتكون سعادته[164] على قدر علمه، وشقاوته على قدر جهله، وعقله هو الذي يوصله إلى هذه السعادة.

وإياكم أن تظنوا أن العلوم الشرعية مناقضة[165] ومنافرة للعلوم العقلية. بل كل شيء جاء عن الأنبياء مما شرعوه للناس، لا يخالف العقول السليمة. نعم يكون في شرائع الأنبياء ما تستبعده العقول، لقصورها عنه. فإذا عرفت طريقه عرفت أنه الحق، الذي لا ينبغي العدول عنه، مثاله في شرع الإسلام الذهب والفضة، فإن الشرع يمنع من اختزانهما من غير إعطاء بعضها للفقراء والمساكين. ويمنع من اتخاذ الأواني للأكل، والشرب، منها. ويمنع من بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، بزيادة[166]، فإذا قيل لإنسان أعط بعضها للفقراء، وإلا تحرق بالنار يقول : أنا تعبت وجمعتها فكيف أعطيها من كان نائما مستريحا؟ هذا خارج عن العقل. وإذا قيل له[167] لا تأكل[168] لا تشرب في أواني الذهب، والفضة وإلا تحرق بالنار، يقول : أنا أتصرف في ملكي ولا ينازعني فيه[169] أحد، فكيف أعاقب على التصرف في ملكي؟ هذا خارج عن العقل وإذا قيل له : لاتبع الذهب بالذهب، ولا الفضة بالفضة، بزيادة، وإلا تحرق بالنار يقول أنا أبيع واشتري برضى (15/ب) مني ومن الذي أتعامل[170] معه، ولولا البيع والشراء لخربت الدنيا وتعطلت المنافع، هذا الشيء[171] خارج عن العقل وكلامه هذا صحيح، فإن العقل غير مدرك للعقاب على هذه الأمور، فيحتاج العقل إلى التعريف فيقال له : الحكمة التي

خلق الله الذهب والفضة لأجلها[172] هي أن قوام الدنيا بهما، وهما حجران لا منفعة في أعيانهما، إذ لا يردان حرا ولا بردا، ولا يغذيان جسما. والخلق كلهم محتاج إليهما، من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أشياء كثيرة، في مطعمه، وملبسه. وقد يملك ما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك القمح مثلا، وهو محتاج إلى فرس. والذي يملك الفرس قد يستغني عنه، ويحتاج إلى البر، فلا بد بينهما من معاوضة، ولا بد من تقدير العوض، لا يعطي صاحب الفرس فرسه بكل مقدار من البر، ولا مناسبة بين البر والفرس حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة، فلا يدري أن الفرس كم يسوى بالبر، فتتعذر المعاملات في هذا المثال، وأشباهه. فاحتاج الناس إلى متوسط يحكم بينهم بالعدل، فخلق الله الذهب والفضة حاكمين، بين الناس في جميع المعاملات. فيقال هذا الفرس يسوى[173] مائة دينار، وهذا القدر من البر يسوى مثله.

وإنما كان التعديل بالذهب والفضة، لأنه لا[174] غرض في أعيانهما، وإنما خلقهما الله، لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكمين[175] بالعدل. ونسبتهما إلى جميع الأموال نسبة واحدة. فمن ملكهما كأنه ملك كل شيء، ومن ملك فرسا مثلا فإنه لم يملك إلا ذلك الفرس. فلو احتاج إلى طعام، ربما لم يرغب صاحب الطعام في الفرس، لأن غرضه في ثوب مثلا، فاحتيج إلى ما هو في صورته، كأنه ليس بشيء، وهو في معناه كأنه الأشياء. والشيء إنما يستوي[176] نسبته (16/أ) إلى الأشياء المختلفات، إذا لم تكن له صورة خاصة، كالمرآة لا لون لها، وتحكي كل لون. فكذلك[177] الذهب والفضة، لا غرض فيهما، وهما وسيلتان إلى كل غرض. فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكمة الإلهية، فإنه يعاقب بالنار، إن لم يقع السماح[178]. فمن كنزهما من غير أن يعطي منهما قدرا مخصوصا للفقراء، فقد أبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس الحاكم الذي يفصل بين الناس، ويقطع الخصوصات في سجن، يمتنع عليه الحكم بسببه، لأنه إذا كنزهما فقد ضيع الحكم. وما خلق الله الذهب والفضة لزيد خاصة، ولا لعمرو خاصة، وإنما خلقهما لتتداولهما الأيدي ليكونا حاكمين بين الناس.

ولا شك أن العقل إذا عرف هذا الذي قلناه، حكم بأن ادخار الذهب والفضة عن الناس ظلم، واستحسن العقوبة عليه، لأن الله تعالى لم يخلق أحدا للضياع. وإنما جعل عيش الفقراء على الأغنياء ولكن الأغنياء ظلموا الفقراء، ومنعوهم حقهم، الذي جعله الله لهم. وكذا نقول من اتخذ من الذهب والفضة آنية للأكل[179] والشرب، فهو ظالم وكان أشر من الذي كنزهما، وادخرهما، لأن مثال هذا مثال من جعل حاكم البلد حجاما أو درازا[180] أو جزارا، من الأعمال التي يقوم بها أخساء الناس. لأن النحاس، والرصاص

والطين، تنوب مناب الذهب والفضة، في حفظ المأكولات والمشروبات عن التبديد[181]. وفائدة الأواني حفظ المائعات. ولا يكفي الطين[182]، والحديد، والرصاص، والنحاس، في المقصود الذي يراد من الذهب والفضة، ولا شك أن العقل إذا عرف هذا لم يتوقف في استحسانه، واستحسان العقوبة عليه.

وكذا نقول من باع الذهب بالذهب[183]، أو[184] الفضة بالفضة بزيادة[185] فقد جعلهما (16/ب) مقصودين في ذاتهما للتجارة، وذلك خلاف الحكمة الإلهية. لأن من عنده ثوب مثلا، وليس عنده ذهب ولا فضة، وهو محتاج إلى طعام، فقد لا يقدر أن يشتري الطعام بالثوب، فهو معذور في بيعه بالذهب، أو الفضة، فيتوصل إلى مقصوده، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما. فأما من عنده ذهب، فأراد بيعه بذهب، أو فضة فأراد بيعها بفضة، فإنه يمنع من ذلك. لأنه يبقى الذهب والفضة متقيدين محبوسين عنده، ويكون بمنزلة الذي كنز. وتقييد الحاكم أو الرسول الموصل الحاجات إلى الغير ظلم. فلا معنى لبيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة إلا اتخاذهما مقصودين للادخار. فإذا عرف العقل هذا حسنه، وحسن العقوبة عليه.

وإنما كان بيع الذهب بالفضة، والعكس لا عقوبة عليه. لأن أحدهما يخالف الآخر في التوصل به إلى قضاء الحاجات، إذ يسهل التوصل بالفضة، من جهة كثرتها فتتفرق في الحاجات. والمنع تشويش للمقصود به، وهو تسهيل التوصل به إلى غيره. وكذا نقول لمن يبيع الفضة[186] والذهب بزيادة إلى أجل، كمن يبيع عشرة بعشرين إلى سنة، أن مبنى الاجتماع، وأساس الأديان، هو استعمال ما يوجب المحبة والألفة، فيحصل التناصر والتعاون. والإنسان إذا كان محتاجا، ووجد من يسلفه، فلا شك، أنه يتقلد منة من أسلفه، ويعتقد محبته، ويرى أن نصرته وإعانته أمر لازم له، ففي منع بيع الذهب والفضة بزيادة إلى أجل، إبقاء لمنفعة السلف، التي هي من أجل المقاصد.

وهذا الذي ذكرناه جزئية من كليات، تبين أن الشرع لا يخالف العقل، وقس عليه جميع ما أمرت به الأنبياء، ونهت عنه. فجميع أقوال[187] الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها ما لا يهتدي العقل إليه أولا، فإذا هدي (17/أ) إليه عرفه، وأذعن له. وكما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات، يستبعدها من لا يعرفه، فكذلك الأنبياء. فلا يصل العقل إلى علومهم إلا بتعريفهم ويلزم العاقل التسليم لهم، بعد النظر في صدقهم فكم من شخص يصيبه مرض في إصبعه، فيقتضي عقله أن يطليه بالدواء حتى ينبهه الطبيب الحاذق، أن علاجه أن يطلى الكتف من الجانب الآخر من البدن. فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد. فإذا عرفه الطبيب كيفية انشعاب الأعصاب، ومنابتها، ووجه التفافها على البدن أذعن.

فصل في إثبات النبوة، واحتياج كافة العقلاء إلى علوم الأنبياء.

اعلموا وفقكم الله، أن النبوة هي عبارة عن طور تنفتح[188] فيه عين أخرى، زائدة على طور العقل، ونظره، ينظر بها النبي ما يكون في المستقبل من أمور، العقل معزول عن إدراكها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل[189] الحواس عن مدركات التمييز. وانظروا إلى ذوق الشعر، كيف يختص به قوم من الناس، وهو نوع إحساس، وإدراك ويحرم منه[190] بعضهم. وانظروا كيف عظمت قوة هذا الذوق في طائفة، حتى استخرجوا بها الموسيقى[191]، والأغاني، والأوتار، ونحوها، التي منها الحازن، والمطرب، والمبكي، والمضحك، والقاتل، والموجب للغشي. وإنما يقوى[192] على استنباط هذه الأنواع من قوي له أصل الذوق.

وأما العاطل عن خاصية هذا الذوق، فيشاركه في سماع (17/ب) الصوت، وتضعف فيه هذه الآثار. وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشي[193] لو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق، لم يقدروا[194].

فلا تجعلوا الكمال وقفا على العقل، فوراء كمال العقل كمال آخر، أعلى من كمال العقل. وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأنكرها، واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء استبعدوا مدركات النبوة[195]. ولا مستند لاستبعادها إلا أنها طور لم تبلغه العقول. وقد خلق الله مثالا للنبوة[196]، من حيث إنها إدراك زائد على الإدراك المتعارف، وهو النوم. إذ النائم يدرك[197] أمورا تكون في المستقبل، إما صريحا، وإما بإشارة يعرفها المعبرون للرؤيا. وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه، وقيل له إن من الناس من يسقط كالميت، ويزول إحساسه، وسمعه، وبصره، فيدرك المغيبات لأنكره، وقال القوى الحسية أسباب الإدراك، والإنسان لا يدرك المغيبات، مع وجود حواسه، فكيف يدرك مع غيبتها. والوجود والمشاهدة قاضيان بصحة النوم. وقد شاهدنا صحة كثير من المنامات، وبلغنا عن الثقات بالنقل الصحيح، إن الفردوسي الشاعر لما صنف كتابه المسمى بشاهنامه على[198] اسم السلطان محمود ابن سبكتكين، وأنه ما قضى

حقه، كما يلزم وما راعاه، كما يليق بذلك الكتاب، ضاق قلب الفردوسي، فرأى رستم في المنام، فقال له إنك مدحتني في هذا الكتاب كثيرا، وأنا في جملة الأموات، فلا أقدر على قضاء حقك، ولكن اذهب إلى الموضع الفلاني، واحفر فإنك تجد فيه دفينا كنت دفنته فخذه، فذهب فوجده وأخذه. فكان الفردوسي، يقول إن رستم بعد موته، كان أكثر كرما من محمود حال حياته.

والشك في النبوة، إما أن يكون في إمكانها، أو وجودها، أو حصولها لشخص معين، ودليل إمكانها ووجودها وجود معارف[199] في العالم، لا يمكن أن تدرك (18/أ) بالعقل، كعلم[200] الطب، وعلم النجم. فإن من بحث في علميهما، علم يقينا، إن بعضها لا يدرك إلا من جهة الله تعالى، ولا تكون التجربة طريقا إليها. فإن من الأحكام النجومية[201] ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة، فكيف يحصل ذلك العلم بالتجربة. وكذلك خواص الأدوية. فظهر بهذا[202]، أن من الممكن وجود طريق إدراك هذه الأمور، التي لا يدركها العقل. وهو المراد بالنبوة. وثم أمور تسمى[203] خواص لا يدور العقل حولها أصلا. فإن وزن[204] دانق من الأفيون سم قاتل. لأنه يجمد الدم في العروق لقوة برودته. والعالم بالطبيعيات يقول إنه يبرد، لأنه من المبردات التي يغلب فيها عنصر الماء والتراب. ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب، لا يبلغ تبريدها[205] إلى هذا الحد. ولو أخبر طبيب بهذا، ولم يجربه، لقال هذا كذب، لأن الماء والتراب، لو كانا وحدهما، ما وصلا إلى هذا الحد، والأفيون فيه هوائية ونارية، فإذا جربه التزم أن يقول إن في الأفيون خاصية في التبريد، خارجة عن قياس العقول. ولو قيل لإنسان هل يمكن أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة قمح[206] في بلدة، فياكل تلك البلدة بجملتها، ثم يأكل نفسه، فلا يبقى شيء من البلدة[207] وما فيها، ولا يبقى هو في نفسه، لقال هذا محال، وهو من جملة الخرافات. وهذه حالة ينكرها من لم ير النار، وأكثر العجائب التي يخبر بها الأنبياء من هذا المعنى.

وإذا ثبت أن الله تعالى فاعل مختار لا علة[208] موجبة، وثبت أن إرسال الأنبياء ممكن، غير محال في حقه، وجاءت الأنبياء بما يصدقهم من المعجزات الخارقة للعادة، لزم تصديقهم.

والدليل، على أن الله تعالى[209]، فاعل مختار، هو أن هذه الأجسام الموجودة متناهية، وكل متناه فهو مشكل، ينتج أن هذه الأجسام الموجودة مشكلة. وهذه الأشكال قسمان. أحدهما الأشكال التي حصلت على سبيل (18/ب) الاتفاق، من غير

أن يحتاج حصولها إلى فعل فاعل حكيم. والثاني الأشكال التي يشهد صريح العقل بأنها لم تحصل إلا بقصد فاعل حكيم.

أما القسم الأول فمثل الحجر المنكسر، والكوز المنكسر. فإنه لا بد وان يكون لتلك القطعة من الحجر والفخار، شكل مخصوص معين، إلا أن صريح العقل شاهد، بان ذلك الشكل المخصوص وقع على سبيل الاتفاق، ولا يتوقف حصوله على فعل مختار وأما القسم الثاني فهو مثل الأشكال الواقعة، على وفق المصالح والمنافع مثاله الإبريق،[210] فإننا لما نظرنا إلى الإبريق رأينا فيه ثلاثة أشياء أحدها[211] الرأس الواسع، وثانيها البلبلة الضيقة، وثالثها العروة. فلما تأملنا في هذه الأحوال الثلاثة، وجدناها موافقة لمصلحة الخلق، فإنه لابد من توسيع رأس الإبريق، حتى يدخل الماء فيه بالسهولة. ولابد من ضيق بلبلته، حتى يخرج الماء منها بقدر الحاجة. ولابد له من العروة، حتى يقدر الإنسان على أن يأخذه بيده، فلما وجدنا هذه الأوصاف الثلاثة، في الإبريق مطابقة للمصلحة، شهد عقل كل واحد[212]، بأن فاعل هذا الإبريق، لابد وأن يكون قد فعله بناء على الحكمة ورعاية المصلحة. ولو أن قائلا قال إن هذا الإبريق، تكون بنفسه من غير قصد قاصد حكيم، ولا فعل فاعل، بل اتفق تكونه[213] بنفسه، كما اتفق تشكل هذه القطعة بهذا الشكل الخاص، من غير قصد قاصد، حكيم ولا جعل[214] جاعل، لشهدت الفطرة السليمة، بان هذا القول باطل محال.

ومتى ثبت القول بالفاعل المختار، ثبت حدوث العالم ومن عرف هذا سهل عليه معرفة النبي. فإن من[215] دخل بستانا، ورأى أزهارا حادثة، بعد أن لم تكن، ثم رأى عنقود عنب، قد اسودّ جميع حباته، إلا حبة واحدة، مع تساوي نسبة الماء و الهواء وحر الشمس إلى جميع الحبات، فإنه يضطر إلى العلم، بأن فاعله مختار. وحينئذ تحصل (19/أ) المعرفة الضرورية بصدق الرسول، لأن دلالة المعجزة، على صدق الرسل ضرورية.

تنبيه

إذا وقع لكم الشك، في شخص معين، أنه نبي أم لا، فلا يحصل لكم اليقين إلا بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، وإما[216] بالتسامع والتواتر. فإنكم إذا عرفتم الطب والحكمة مثلا يمكنكم أن تعرفوا[217] الأطباء والحكماء، بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدوهم، فلا تعجزون عن معرفة كون جالينوس طبيبا، وكون أفلاطون حكيما معرفة بالحقيقة، لا بالتقليد للغير، بأن تطالعوا كتبهما، وتصانيفهما بعد معرفتكم بالطب، والحكمة، فيحصل لكم العلم الضروري بحالهما، فإذا فهمتم معنى النبوة، فأكثروا من مطالعة كتب الأنبياء وأخبارهم، وكيف كانت سيرهم[218] وأحوالهم. فإذا قال قائل، إن هذا المنقول عنهم خرافات، وكذب، فنقول له ما بال الناس لا ينقلون نقلا متواترا، عن غير الأنبياء، مثل ما نقلوا عن الأنبياء[219]، وأكثر الأمور التي نقلت عن الأنبياء، مما يدل على صدقهم متواترة يجزم العقل بأنها موجودة. والتواتر مفيد للعلم. وحقيقة التواتر. هو أن يخبر جماعة يبعد تواطؤهم على الكذب، عادة عن أمر محسوس. فيحكم العقل به بمجرد خبرهم. فيحصل العلم الضروري. ولا شك في هذا إذ لا طريق للعلم الضروري بالبلاد البعيدة مثل الصين وأمريكة[220]، والأشخاص الماضية، كحاتم، وعنتر، وجالينوس، وأرسطو إلا بالتواتر. وجميع الأنبياء إنما ثبتت[221] نبوتهم عندنا وعند كل من لم يشاهدهم، ويعاصرهم بالتواتر. لأنه نقل إلينا بالتواتر أحوالهم وسيرهم، وظهور الخوارق على أيديهم، فإن رددنا التواتر وما (19/ب) قبلناه، واقتصرنا على ما نشاهده، يلزم بطلان نبوة جميع الأنبياء. بل يلزمنا عدم التصديق بوجود البلاد التي لم نشاهدها، وعدم الأشخاص الذين لم نشاهدهم وهو ظاهر البطلان.

وإن اعترفنا بصحة التواتر، لزمنا الاعتراف بنبوة جميع الأنبياء. والنبي يدعو الناس إلى عبادة الله، ولا ضرر عليه لو خالفه الناس أجمعون. ومثال الرسول مع الذين ما صدقوه ولا أجالوا خواطرهم، بالنظر في صحة قوله مثال رجل يقول لآخر، إن وراءك سبعا ضاريا، فإن لم تهرب قتلك، وإن التفت وراءك، ونظرت عرفت صدقي، فيقول الواقف إنه لا يثبت صدقك عندي، إلا إذا نظرت والتفت ورائي، ولا ألتفت ورائي، إلا إذا ثبت صدقك. وهذا كلام يدل على حماقة هذا القائل، وتعرضه للمهالك. ولا ضرر فيه على هذا المخبر.

فكذلك الرسول يقول وراءكم الموت، ووراء الموت السباع الضارية، والنيران المحرقة، فإن لم تحذروا منها وتعرفوا[222] صدقي بالنظر في أحوالي ومعجزاتي هلكتم. فمن التفت ونظر عرف ونجا. ومن لم يلتفت، ولم ينظر هلك، ولا ضرر علي، ولو هلك الناس أجمعون. فالرسول يعرف بوجود السباع الضارية بعد الموت، والعقل يفهم كلامه، ويحكم بإمكان وقوع ما يقوله في المستقبل. والطبع من شأنه الحذر من الضرر. وأساس الديانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمد. فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه، واعتقاد أن كل شيء في العالم صنعه، وأنه تعالى علة لوجود كل شيء ولا علة لوجوده هو سبحانه وتعالى[223]. وإلى حفظ[224] النفس، والعقل، والنسل، والمال، فهذه الكليات الخمس لا خلاف فيها بين الأنبياء. وجميع الشرائع متفقة عليها. وحاصلها يرجع إلى تعظيم الإله، والشفقة على مخلوقاته. وطريان النسخ على هذه الكليات الخمس محال. وإنما النسخ يمكن في الشرائع الوضعية[225]. وهي الأشياء (20/أ) التي يجوز ويصح أن لا تكون مشروعة. دون الأحكام العقلية كتوحيد الإله، وما ذكرنا معه من الكليات. فإن العقول والشرائع متوافقة على لزوم حفظها. والخلاف بين الأنبياء في كيفية حفظها ووضع القوانين[226] لدوام بقائها محفوظة، وفائدة النسخ وحكمته. إما على تقدير كون الأحكام الشرعية معللة بمصالح العباد، واللطف بهم فيمكن أن تختلف مصالح الأوقات، فتختلف الأحكام بحسبها كمعالجة الطبيب، فإنه قد يأمر بشرب دواء خاص، في وقت دون وقت فربما كانت المصلحة في وقت[227] ثبوت الحكم لاشتماله على شيء تلزم رعايته، وفي وقت آخر ارتفاعه لاشتمال رفعه على مصلحة أخرى، حادثة بعد زوال الأولى. وإما على تقدير أن الأحكام الشرعية مستندة إلى محض إرادة الله من غير مراعاة مصلحة، فالأمر هين، لأنه تعالى هو الحاكم المطلق الفعال لما يريد. فيمكن أن يضع حكما، ويرفع حكما، لا لعلة وغرض. فكما لا تنافي بين الأمر المقتضي لوجود الحادث في وقت، وبين الأمر المقتضي لفنائه[228]، في وقت آخر، كذلك ليس بين تحليل الشيء في زمان، وتحريمه في زمان آخر تناف أصلا. وكما أن مدة بقاء كل حادث وزمان فنائه معين في علم الله تعالى، وإن كان مجهولا لنا، كذلك مدة بقاء كل حكم وزمن تغيره كان معينا في علم الله، وإن كان مجهولا لأهل الأديان السابقة، فالتخالف بين شرائع الأنبياء في جزئيات الأحكام بسبب تفاوت[229] الأعصار في المصالح، من حيث إن كل واحد من الأحكام حق بالإضافة إلى أهل زمانه مراعي فيه مصالح من خوطب به.

فالنسخ إنما هو للأحكام، لا لنبوة النبي المنسوخة شريعته. فإن النبوة صفة[230] لا تزول عمن اتصف بها. واليهود منعوا (20/ب) النسخ فأنكروا الإنجيل[231]. وذلك أن الإنجيل النازل على المسيح ليس[232] فيه أحكام من الحلال والحرام، وإنما هو رموز

وأمثال ومواعظ. والأحكام فيه[233] محالة على التوراة، إلا أن فيه إشارة لنسخ بعض[234] أحكامها[235]. وقالوا[236] إن عيسى مأمور باتباع التوراة، وموافقة موسى، فغير وبدل، وعدوا[237] من التغييرات، تغيير السبت إلى الأحد، ومنها أكل[238] بعض ما كان حراما في التوراة. ومنها الختان وكان لازما في التوراة. ومنها الغسل من الجنابة، وكان لازما في التوراة، ومنها زوال النجاسة، وكان لازما في التوراة وغير ذلك. واحتجت اليهود بأن موسى نفى نسخ دينه، ويلزم الاعتراف بصدقه، لكونه نبيا بالاتفاق. وذلك أنه قال بالتواتر: تمسكوا بالسبت مادامت السماوات والأرض. والمراد بدوامه، دوام اليهودية كما هو ظاهر اللفظ. واحتجوا أيضا بأن موسى، إما أن يكون صرح بدوام دينه، أو بعدم دوامه، أو سكت. والأخيران باطلان.

أما تصريحه بعدم دوام دينه، فإنه لو قال ذلك لتواتر عنه لكونه من الأمور العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها وإشاعتها سيما[239] من الأعداء، ومن يدعي نسخ دينه. لأنه أقوى حجة له في نسخه لكنه لم يتواتر باتفاق. وأما الثالث وهو سكوته فلأنه يقتضي ثبوت دينه مرة واحدة، وعدم تكرره، لأن الشيء إذا أطلق يتحقق بالمرة الواحدة، وهذا معلوم البطلان، لتقرر شرع موسى إلى وقت ظهور المسيح، فأجابهم النصارى المصدقون للمسيح القائلون بأن نسخ الشرائع ممكن بأن تواتر دوام السبت عن موسى باطل. ولو كان متواترا كما زعمتم لاحتج به على المسيح. ولو احتج به عليه، لنقل إلينا متواترا لتوفر الدواعي على نقله ولا تواتر.

وأما قولكم،[240] أكان، صرح بدوام دينه أو بعدم دوامه أو سكت؟ فجوابه أنه صرح (21/أ) بدوامه إلى ظهور الناسخ وهو المسيح. وإنما لم ينقل ذلك تواترا، لقلة الدواعي منهم إلى نقله، لما فيه من الحجة عليهم. والنسخ في الحقيقة ليس هو إبطالا[241]، وإنما هو تكميل. وفي التوراة أحكام عامة، وأحكام مخصوصة، إما بأشخاص، وإما بأزمان، وإذا انتهى ذلك الزمن، لم يبق ذلك الحكم لا محالة، ولا يقال، إنه إبطال. واليهود لو عرفوا لم ورد التكليف بملازمة السبت، وهو يوم أي شخص يوم من الأشخاص، وفي مقابلة أية حال، وجزء أي زمن، عرفوا أن شريعة المسيح حق، واليهود هم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير. وقال المسيح ما جئت لإبطال التوراة، بل جئت لأكملها، قال صاحب التوراة النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف[242] والجروح قصاص. وأنا أقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فضع له خدك الأيسر. وجواب النصارى لليهود. هو جواب المسلمين للنصارى والذي قاله المسيح، قاله محمد. فإنه قال ما جئت لإبطال الإنجيل والتوراة، وإنما جئت لأكملهما. ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة. وفي الإنجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة. وأنا جئت بالسياسيتين جميعا. جئت بالقصاص (ولكم في القصاص حيوة) "البقرة /176"

وهو إشارة إلى السياسة الظاهرة العامة. وجئت بالعفو (وأن تعفو أقرب للتقوى) "البقرة /237"، (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) "الأعراف/199" وهو إشارة إلى السياسة الباطنة الخاصة.

وهذا دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم[243] خاتم النبيين. لأن النبوة حكمة، والحكمة إما عملية أو علمية أو جامعة بينهما. وحكمة موسى كانت عملية لاشتمالها على تكاليف شاقة، وأعمال متعبة. وحكمة المسيح كانت[244] علمية لاشتمالها على التجرد والروحانيات والتصوف المحض. وحكمة محمد بينهما. فلا يجيء نبي[245] بعده غير المسيح فإنه ينزل ثانيا (21/ب) إلى الأرض لأن الذي يجيء بعد محمد إن كانت حكمته عملية فموسوي. وإن كانت حكمته علمية فمسيحي[246]. وإن كانت جامعة بينهما فمحمدي. فقد انختمت عليه النبوة بالضرورة.

فالدين واحد باتفاق الأنبياء. وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية. فهم كرجال أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة. فتكذيب جميعهم أو تكذيب البعض، وتصديق البعض قصور، ولو أصغى إلى المسلمون[247] والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا. ولكن لا يصغون إلي لما سبق في علم الله، أنه لا يجمعهم على رأي واحد. ولا يرفع الخلاف بينهم، إلا المسيح عند نزوله، ولا يجمعهم لمجرد[248] كلامه، مع أنه يحيي الموتى، ويبريء الأكمه والأبرص. ولا يجمعهم إلا بالسيف والقتل. ولو جاءني من يريد معرفة طريق الحق، وكان يفهم لساني فهما كاملا لأوصلته إلى طريق الحق من غير تعب، لا بأن يقلدني بل بأن[249] يظهر الحق له حتى يعترف به اضطرارا.

وعلوم الأنبياء من حيث خطابهم للعامة دائرة على ما يصلح الناس في معاشهم ومعادهم. وما جاءوا ليجادلوا الفلاسفة ولا لإبطال علوم الطب، ولا علوم[250] النجم، ولا علوم الهندسة، وإنما جاءوا باعتبار هذه العلوم على وجه لا يناقض التوحيد، ونسبة كل[251] ما يحدث في العالم إلى قدرته، وإرادته سبحانه، فما جاءوا لمنازعة من يقول الجسم مركب من العناصر الأربعة، ولا من يقول إن الأرض كروية[252] الشكل. ولا من يقول إن خسوف القمر بسبب توسط الأرض بينه وبين الشمس[253] فإن[254] أمثال هذه الأمور لا تضاد ما جاءت به الأنبياء.

وبحث الأنبياء في العالم إنما هو عن كونه حادثا أو قديما، ثم إذا ثبت حدوثه فسواء كان كرة أو بسيطا، وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة أو أقل (22/أ) أو أكثر، فالمقصود كونه من فعل الله. ومن قال هذا مناقض للدين أو المنازعة فيه من الدين، فقد جنى على الدين. وضرر الشرع من جهة من ينصره لا بطريقته أكثر ممن يطعن فيه.

خاتمة

إن المكذب للأنبياء المستغنى بعقله عما جاءوا به من الأعمال والعبادات مغرور، وكل ما جاء في فضل العلم، وذم الجهل، فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه. فمهما كان الإنسان يعتقد شيئا يوافق هواه، وكان السبب الموجب لاعتقاده دليلا فاسدا، فهو مغرور.

وأنواع الغرور، والمغرورون كثير، ونذكر نوعا واحدا، وهم الذين غرتهم الدنيا فنقول. قال الذين غرتهم الدنيا الحاضر خير من المنتظر، والدنيا حاضرة، والآخرة منتظرة، فالدنيا خير فلا بد من الاشتغال بها، وبما يصلحها. وقالوا اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين، ولذات الآخرة شك، فلا نترك اليقين لأجل الشك. ودواء هذا إما بتصديق الأنبياء فيما قالوا، وإما بالدليل والبرهان. أما تصديق الأنبياء مجردا فهو مرتبة العوام. ويخرج المصدق لهم من الغرور. وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده، في أن حضور المكتب خير من حضور اللعب، مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا.

وأما البرهان فهو أن يعرف فساد هذا الدليل وفيه أصلان أحدهما أن الدنيا حاضرة، والآخرة منتظرة وهذا صحيح. والآخر أن الحاضر خير من المنتظر. وليس كذلك. بل إن كان الحاضر مثل المنتظر في المقدار فهو خير. فإن غير[255] المغرور يبذل في تجارته(22/ب) درهما ليأخذ عشرة منتظرة، ولا يقول الحاضر خير من المنتظر فلا أتركه. وإذا حذره[256] الطبيب من أكل الفواكه، ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل. فقد ترك الحاضر ورضي بالمنتظر. والتجار كلهم يركبون البحار، ويتعبون في الأسفار حاضرا، لأجل الربح والراحة في المستقبل. فإن كان عشرة في المستقبل خيرا من واحد في الحاضر، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة. فإن غاية عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عشر عشر من جزء من مائة ألف ألف جزء من الآخرة، فإنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف، بل يأخذ ما لا نهاية له ولا حد. وإن نظر من حيث اللذة، رأى لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذة الآخرة صافية غير مكدرة فإذن أنه غلط في قوله: الحاضر، خير من المنتظر.

وأما الدليل الآخر، وهو قوله: اليقين خير من الشك، والدنيا يقين، فهو أكثر فسادا من الأول، إذ اليقين خير من الشك، إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين، وفي ربحه على شك. والمتعلم في اجتهاده وتعبه على يقين، وفي إدراكه رتبة العلماء على شك. والصياد في تردده في مواضع الصيد على يقين، وفي الظفر بالصيد على شك. وكل هذا ترك لليقين بالشك. ولكن التاجر يقول : إن لم اتجر بقيت جائعا. وإن اتجرت كان تعبي قليلا، وربحي كثيرا.

وكذلك المريض يشرب[257] الدواء المر، وهو من الشفاء على شك. ومن مرارة الدواء على يقين. ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالنسبة إلى ما أخافه من المرض والموت. فكذلك من شك فيما قاله الأنبياء في الآخرة بعد الموت، فلازم له بحكم العقل، والحزم الذي هو دأب العقلاء، أن يقول الصبر أياما قلائل، وهو مدة العمر قليل بالنسبة إلى ما يقال من أمور[258] الآخرة. فإن كان ما قيل كذبا، فلا تفوتني إلا الراحة والتنعم أيام عمري. وإن (23/أ) كان ما قيل صدقا فأبقى في النار أبد الآباد. وهذا لا يطاق، ولهذا قال بعض المصدقين للأنبياء لبعض المكذبين : يا هذا، إن كان الذي قلته أنت حقا، فقد تخلصت وتخلصنا. وإن كان الذي قلته أنا حقا، فقد تخلصنا وهلكت أنت.

وأما الأصل الثاني وهو أن الآخرة شك فهو خطأ، بل هو يقين عند العقلاء. وطريق زوال هذا الغرور، هو التصديق للأنبياء والعلماء بوجود الآخرة، وما أعد الله فيها للمطيعين والعاصيين. ومثاله مثال مريض، لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء كلهم على أن دواءه[259] النبت الفلاني، فإن المريض يصدقهم ولا يطالبهم بالبرهان على صحة قولهم. بل يتيقن بقولهم، ويعمل به ولو بقي معتوه، أو صبي يكذبهم في ذلك. إذ[260] المريض يعلم أنهم أكثر عددا ممن كذبهم، وأعظم منه فضلا، وأعلم منه بالطب. ولو ركن المريض إلى قول المعتوه، وترك الأطباء، كان معتوها مغرورا، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة[261] والمصدقين بها، وجدهم أعلى الناس رتبة في العقل، والمعارف، ووجد المكذبين بالآخرة أخس الناس من البطالين، الذين غلبت عليهم الشهوات البهيمية. فكما أن قول المعتوه لا يزيل ثقة القلب، بما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هؤلاء البطالين، الذين بقوا محبوسين في مدركات الحواس، لا يشكك في قول الأنبياء والعلماء.

الباب الثالث

في فضل الكتابة

اعلموا أنه تقرر أن الإنسان مدني بالطبع، إذ الإنسان الواحد لو لم (23/ب) يكن في الوجود إلا هو وإلا الأمور الموجودة في الطبيعة لهلك الإنسان[262]، أو ساءت معيشته، فالإنسان محتاج إلى أمور زائدة عما في الطبيعة، مثل الغذاء المصنوع، فإن الأغذية لا تلائم الإنسان، والملابس لا تصلح إلا إذا صارت صناعية. فلذلك يحتاج الإنسان إلى جملة من الصناعات حتى تسهل أسباب معيشته، والإنسان الواحد لا يمكنه القيام بالصناعات كلها. فلابد من المشاركة والاجتماع حتى يخبز هذا لذاك[263]، وينسج ذاك لهذا. وحينئذ فيحتاج الإنسان إلى أن تكون له قدرة على أن يعرِّف الآخر الذي هو شريكه ما في نفسه بعلامة وضعية، وهي : إما إشارة، وإما كتابة. والإشارة تتوقف على المشاهدة، واللفظ يتوقف على حضور المخاطب، وسماعه. وأما الخط فلا يتوقف على شيء، فهو أشرفها. وهو خاصية النوع الإنساني. فاللفظ أشرف من الإشارة. والكتابة أفضل من النطق. لأن الإشارة لا تصلح إلا للشيء المرئي الحاضر. وهي عبارة عن تحريك الحدقة إلى جانب معين، فالإشارة نوع واحد أو نوعان. فلا تصلح لتعريف الأشياء المختلفة.

وأيضا إذا أشير إلى شيء فلذلك[264] الشيء ذات قامت بها صفات كثيرة فلا يعرف بسبب تلك الإشارة، أن المراد تعريف الذات وحدها، أو الصفة الفلانية. وأما اللفظ فإنه واف بجميع ذلك لأن اللفظ يتناول الموجود والمعدوم. ويتناول ما تصح الإشارة إليه، وما لا تصح الإشارة إليه. ويفهم المقصود منه دون إبهام. والكتابة أشرف وأنفع من الإشارة واللفظ. لأن القلم وإن كان لا ينطق، فإنه يسمع أهل المشرق، وأهل المغرب. فما جمعت العلوم، ولا قيدت الحكمة، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة، إلا بالكتابة، ولو لا الكتابة (24/أ) ما استقام للناس دين، ولا دنيا.

فالكتابة عين العيون، بها يبصر الشاهد الغائب. وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان. ولذا قيل القلم أحد اللسانين. بل الكتابة أبلغ من اللسان، فإن

الإنسان يقدر على كتابة ما لا يقدر أن يخاطب به غيره. ويبلغ المقصود حيث لا يمكن الكلام مشافهة. ولهذا نهى[265] شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة[266]، لأن المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى فتكتب له، فتكون سببا للفتنة.

ومن المعلوم أن البيان بيانان اثنان : بيان اللسان، وبيان البنان. ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق مع الأيام. وبيان اللسان تدرسه الأعوام. وقوام الدين والدنيا بشيئين السيف، والقلم. والسيف تحت القلم. ولله در من قال :

كذا قضى الله للأقلام مذ بريت   أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقد قدمنا أن الملكات الصناعية تفيد عقلا زائدا. والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك. لأنها تشتمل على علوم وأنظار. إذ فيها انتقال من صور الحروف الخطية، إلى الكلمات اللفظية. ومنها إلى المعاني. فهو ينتقل من دليل إلى دليل. وتتعود النفوس[267] ذلك دائما. فيحصل لها ملكة الانتقال من الدليل إلى المدلول، وهو مقتضى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة. فيحصل بذلك مزيد عقل وزيادة فطنة. والكتابة وإن عظمت منفعتها، فهي مفرعة عن النطق. ولكن قد يوجد في الفرع ما لا يوجد في الأصل. فيكون في الفرع ما في الأصل وزيادة[268]. بيانه أن بدن الإنسان لا يتم إلا بالقلب الذي هو معدن الحرارة الطبيعية. ولابد من وصول النسيم البارد إليه ساعة بعد ساعة، حتى يبقى على اعتدال ولا يحترق. (24/ب) فخلقت الآلات في بدنه، بحيث يقدر الإنسان بها على إدخال النسيم البارد في قلبه، فإذا مكث ذلك النسيم لحظة تسخن وفسد[269] فلزم إخراجه. فالصانع الحكيم جعل النفس الخارج سببا لحدوث الصوت. ثم إن الصوت سهل تقطيعه في المحابس المختلفة، فحصلت هيئات مخصوصة بسبب تقطيع ذلك الصوت، في تلك المحابس. وتلك الهيئات المخصوصة هي الحروف. ثم ركبوا الحروف فحصلت الكلمات، ثم جعلوا كل كلمة مخصوصة معرفة لمعنى مخصوص. ثم اضطروا إلى الكتابة، وعظمت الحاجة إليها. وظاهر أن إدخالها في الوجود صعب. وذلك أنا لو افتقرنا إلى أن نضع لتعريف كل معنى من المعاني نقشا مخصوصا، لا فتقرنا إلى وضع نقوش لا نهاية لها، فدبروا فيه طريقا لطيفا. وهو أنهم وضعوا بازاء كل واحد من الحروف النطقية البسيطة نقشا خاصا. ثم جعلوا النقوش المركبة في مقابلة الحروف المركبة. فسهلت الكتابة بهذا[270] الطريق. فلهذا كانت الكتابة مفرعة عن النطق. ولكن حصلت في الكتابة منفعة عظيمة، وهو أن عقل الإنسان الواحد لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة. فصار الإنسان إذا استنبط مقدارا من العلم[271] أثبته بالكتابة، فإذا جاء إنسان آخر، ووقف عليه، قدر على استنباط شيء آخر، زائد على ذلك الأول، فظهر أن العلوم إنما كثرت بإعانة الكتابة.

فصل

جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب اثنتا عشرة كتابة. وهي الفارسية، والحميرية، والعربية، واليونانية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، والقبطية، والبربرية، والأندلسية، والهندية، (25/أ) والصينية. وخمس من هذه بطل استعمالها، ولم يبق من يعرفها من الأمم. وهي الحميرية، واليونانية، والقبطية، والبربرية، والأندلسي. والباقيات مستعملات في بلدانها. أما الكتابة الفارسية فإنه وإن كان جنسها واحدا، ففيها ستة أنواع من الخطوط، وحروفها مركبة من أبجد هوزكلمن سفارش تخذغ، فالثاء المثلثة[272]، والحاء المهملة، والصاد والضاد والطاء والظاء والعين المهملة، والقاف سواقط عندهم. وأول من وضع الكتابة الفارسية كهمورث، ويقال كيومرث ثالث ملوك الفرس الأولى. ويقال إنه أول من تكلم بالفارسية. وقيل أول من كتب بالفارسية الضحاك. وقيل فريدون. وملوك الفرس طبقتان فهذه الطبقة الأولى تسعة عشر ملكا، منهم امرأتان.[273] آخرهم دارا بن دارا الذي قتله الإسكندر اليوناني. ودثرت الفرس[274] الأولى كدثور الأمم الماضية. وعدد ملوك الفرس الثانية ثلاثون ملكا منهم امرأتان. أولهم إردشير ين بابك ين ساسان الذي وضع له النرد. وآخرهم يزد جرد ابن شهريار، وهم الأكاسرة. وأصح ما قيل في مدة[275] الفرس من ابتداء ملك كهمورث بن أميم إلى انقضاء ملكهم من الأرض ثلاثة الآف سنة ومائة سنة وأربع وستون سنة.وانقضى ملكهم بقتل يزد جرد بن شهر يار في[276] خلافة عثمان ين عفان. سنة اثنين وثلاثين من الهجرة. وكانت الفرس قليلة الكتب والرسائل. ولم يكن لهم اقتدار على بسط الكلام وإخراج المعاني من النفوس، إلى أن ملك زرا دشت صاحب شريعة المجوس، وأظهر كتابه العجيب بجميع اللغات، والزم[277] الناس بتعليم الخط والكتابة فمهروا في ذلك. ولغات أهل فارس في القديم خمس الفهلوية، والدرية، والفارسية، والخوزية، والسريانية. أما الفهلوية (25/ب) فمنسوبة إلى فهلة اسم يقع على خمسة بلدان، وهي اصبهان، والري، وهي نهاوند، وأذربيحان. وأما الدرية فمنسوبة إلى دار الملك، وهي لغة أهل المدائن، وبها كان يتكلم من بدار الملك. وأما الفارسية فيتكلم بها الموابذة والعلماء، وهي لغة أهل فارس. وأما الخوزية فبها كان يتكلم الملوك والأشراف في الخلوة مع حاشيتهم وأصحابهم. وأما السريانية فكان يتكلم بها أهل السواد إلا إنها سريانية غير فصيحة.

وأما الكتابة العربية فالصحيح أن أول من خط بالعربي مرامر بن مرة وكان يسكن الأنبار. ومن الأنبار انتشرت الكتابة في العرب، وأصل الخط العربي، هو الخط الكوفي. والنقط[278] حادث في الخط العربي. حدث بعد الإسلام، والذي نقل الكتابة من الأنبار إلى الحجاز حرب بن أمية جد الملوك الأموية[279]. وهذه الطريقة الموجودة الآن. أخرجها من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة، أبو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر بالله العباسي. ثم جاء بعده أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب، فهذب هذه الطريقة وكساها طلاوة وبهجة. وهذه الكتابة العربية قريبة الحدوث، لأن العرب كانوا أهل حفظ ورواية أغناهم حفظهم عن الكتابة. وكانت أشعارهم هي دواوين تواريخهم، وضابطة لأيامهم وحروبهم. ولم يكن فيها[280] عالم معروف، ولا حكيم مذكور. وأما الكتابة الحميرية فقد قدمنا أنها درست، وكانت تسمى المسند وحروفها منفصلة غير متصلة. وكانوا يمنعون العامة من تعلمها[281]، ولا يتعلمها أحد إلا بإذن الملك. فجاءت ملة الإسلام، وليس بجميع اليمن من يقرا ويكتب. قيل أول من وضع كتابة المسند، هو حمير أبو ملوك اليمن، وهو سبأ لأنه لما أكثر الغزو في أقطار الأرض سموه سبأ 26/أ، وهو الذي ابتنى صقلية وكثيرا من مدائن المغرب. ملك المغرب مائة سنة. ووصل ملك ملوك حمير من جهة المغرب[282] إلى طنجة. ومن جهة المشرق إلى سمرقند. وهي مدينة الصغد، والذي دخلها وهدمها شمر بن افريقش فسميت شمر كند أي شمر أخربها لأن معنى كند[283] بالفارسي أخرب. ثم إن العرب عربوها وقالوا سمرقند، ثم ظهر له في بنائها فبناها، وكتب على بابها بالكتابة الحميرية هذا فعل شمر الشم ملك العرب لا العجم. فمن بلغ هذا المكان فهو مثلي، ومن جاوزه فهو أفضل. وآخر ملوك حمير ذو جدن، وكانت مدة ملكهم[284] ألفين وعشرين[285] سنة. ثم ملك اليمن بعدهم من الحبشة أربعة، ومن الفرس ثمانية، ثم جاء الإسلام فصارت لهم.

وأما الكتابة السريانية فهي ثلاثة أنواع : وأقدم الأنواع عندهم لا فرق بينه وبين العربي في الهجاء[286]، إلا أن الثاء المثلثة، والخاء والذال، والصاد، والضاد، والعين، كلها سواقط عندهم، وكذا لام ألف. وتركيب حروفها من اليمين إلى اليسار. وبالسريانية[287] كان يكتب الكلدانيون، ومعنى الكلدانيين الموحدون. وهم أمة قديمة مسكنهم العراق، وجزيرة العرب، منهم النماردة ملوك الأرض بعد الطوفان.

واللغة السريانية الفصيحة شأنها عجيب، لأن الكلام فيها يتركب من الحروف الهجائية. فكل حرف هجاء في السريانية يدل على معنى مفيد. فإذا جمع إلى مفيد آخر

حصلت منهما فائدة الكلام. وتختلف معاني الحروف باختلاف الحركات والسكون. والكلام في كل لغة غير السريانية يتركب من الكلمات، لا من الحروف الهجائية. وكانت اللغة السريانية صافية من آدم إلى إدريس، وهو الملقب بهرمس الهرامسة، والمثلث بالنعمة، لأنه كان نبيا ملكا حكيما. وهو باني الأهرام بمصر على الصحيح. وهو أول من تكلم في الأجرام العلوية، والحركات النجومية (26/ب) وأول من نظر في الطب، وألف في البسائط والمركبات، وأول من وضع الهندسة. فلما ذهب إدريس وقع التبديل والتغيير في اللغة السريانية، وجعل الناس ينقلونها عن أصلها، ويستنبطون منها لغاتهم. وأول لغة استنبطت من السريانية لغة الهند، فهي أقرب اللغات إلى السريانية. ولهذا كانت اللغة[288] السريانية سارية في جميع اللغات سريان الماء في العود، لأن حروف الهجاء في كل كلمة من كل لغة قد فسرت في السريانية، ووضعت لمعانيها الخاصة. مثاله أحمد يدل في اللغة العربية إذا كان علما على الذات المسماة به، وفي اللغة السريالية تدل الهمزة المفتوحة التي في أوله على معنى، والحاء[289] المسكنة على معنى والميم المفتوحة على معنى والدال إن كانت مضمومة على معنى، وإن كانت مفتوحة على معنى، وإن كانت مكسورة على معنى، وهكذا كل كلمة مثل زيد، وعمرو، ورجل، وامرأة.

والفار قليط صار[290] في اللغة العربية، علما على محمد بن عبد الله. وفي السريانية كل حرف من حروف هذه الكلمة، يدل على معنى، إلى آخر حروفه. وأما الكتابة العبرانية فهي من أبجد إلى آخر قرشت وما بعده سواقط، وهي مأخوذة من السريانية، ومنسوبة إلى عابر ابن شالخ واضعها.

وأما الكتابة الرومية اللطينية، فأول من اخترع حروف اللسان اللطيني وأثبتها كرمنش ابن مرسية بن شمس بن مزكية، ولم تكن قبله، وذلك بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدإ الخليقة أخذها من كتابة اليونان. واليونان أخذوا كتابتهم من أهل صور. أهل[291] صور (إحدى مدائن الشام القديمة) اخترعوا الكتابة[292]، وهي التي كانت منشأ للحروف اليونانية. ومن كتابة اليونان، أخذ (27/أ) اللطينيون كتابتهم التي هي كتابة جميع أهل أروبا مع بعض اختلاف، وقد اندرست الكتابة اليونانية، وقلم اليونان، والروم من[293] اليسار إلياليمين، مرتب على ترتيب حروف أبجد، وحروفهم أبج وزطي كلمن سعفظ قرشت ثخ ضع. فالدال، والهاء، والحاء، والذال، والضاد، ولام ألف

سواقط. والسبب الذي من أجله يكتبون من اليسار إلى اليمين أنهم يقولون إن شأن الجالس أن يستقبل المشرق لأنه مطلع النيرات، ومحل ظهور النور، فإذا توجه إلى المشرق، يكون الشمال على يساره، فإذا كان كذلك، فاليسار يعطي اليمين القوة، وسبب آخر، وهو أن حركة الأعضاء من استمداد الكبد. والكبد يستمد من القلب. والقلب من جهة اليسار. فطريق الكتابة[294] أن يبتدأ[295] من الجهة التي منها الاستمداد.

تنبيه

حروف الكتابة العربية أكثر من حروف جميع كتابات الأمم، فإنها ثمانية وعشرون حرفا، وهي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ، ويعبرون عنها بأبجد، وهي عبارة عن ثمان كلمات مشهورة مفتتحة بهذه الكلمة، جمع فيها جميع حروف الكتابة العربية بلا[296] تكرير، وقد جرت العادة بتعليمها المبتدئين بعد ما علموهم حروف الهجاء مفرداتها ومركباتها الثنائية، على ترتيب مألوف للطباع، منشط لهم على أخذه وضبطه والفائدة في ذلك هو التنبيه للمبتدي بعد تعلمه المفردات والثنائيات، أن في الكلام تركيبات ثلاثيات، ورباعيات، غير منتظمة على نظام مألوف ليستأنس بوقوع المخالفة بين الحروف فيسهل عليه الشروع في الكلام المطلق، وفيه فائدة أخرى، وهي إيناس المبتدئين بألفاظ مستعملة في معنى من المعاني بعدما كانوا يستعملون (27/ب) تركيبات من الحروف مهملة لا معنى لها. ويؤيد هذا أن معنى أبجد أخذ، ومعنى هوز ركب، ومعنى حطي وقف على المقصود، ومعنى كلمن صار متكلما، ومعنى سعفص، أسرع في التعلم، ومعنى قرشت، أخذه بالقلب، ومعنى تخذ حفظ، ومعنى ضظغ أتم، وتكون كلها على صفة الماضي من الثلاثي، أو الرباعي. فمعنى المجموع على ترتيبها أخذ ركب وقف على المقصود، صار متكلما، أسرع في التعلم، أخذه بالقلب، حفظ، أتم.

وعلى هذا، يمكن اعتبار فائدة أخرى فيها وهي تأليف المبتدئين بالمعاني المربوطة بعضها ببعض بنوع من الارتباط ليتفطن المتعلم الذكي، إذا عرفها إلى أن الأهم له اللائق به في حال التعلم ما يفهم من هذه الكلمات من الأخذ والتركيب والوقوف على المقصود، وتكرار التكلم، والإسراع في التعلم، والإقبال عليه بالقلب، وحفظه له، والقيام بحقه من الإتمام وغيره. وأما قول صاحب القاموس وأبجد إلى قرشت (وكلمن رئيسهم) ملوك مدين، وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، هلكوا يوم الظلة إلى أن قال ثم وجدوا بعدهم تخذ ضظغ فسموها الروادف، فهو قول غريب من صاحب القاموس، بعيد عن الصواب، لا تخفى غرابته من جوه كثيرة.

وهذه الكلمات الثمانية فرعوا عليها من قديم الزمان الحساب المشهور بالجمل، بضم الجيم، وفتح الميم، فإن جميع حروف الهجاء المجوعة فيها ثمانية وعشرون

حرفا[297]، فجعلوا سبعة وعشرين حرفا منها لأصول مراتب الإعداد، من الآحاد، والعشرات، والمئات، وواحدا للألوف، فلم يحتاجوا معها إلى ضم شيء آخر إليها أصلا، فضلا عن تكرارها، كما احتاج أهل الهند في أرقام حسابهم، إلى ضم علامة صفر في عشراتهم، وصفرين في مئاتهم، وثلاثة في آحاد الآلاف، وهكذا فيحصل المقصود (28/أ) في جميع المراتب من نفس هذه الحروف بالإفراد، والتركيب، والتقديم، والتأخير، كما هو مقرر معروف.

خاتمة

من الناس من ينكر التأليف والتصنيف، وكتابة العلوم في هذا الزمن، وهذا الإنكار خطأ. إذ لا وجه لإنكار التصنيف، إذا صدر من العلماء الكاملين البالغين مرتبة التصنيف، وإنما يحمل هذا المنكر على إنكاره التنافس والحسد الجاري بين كل متعاصرين ولله در من قال :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا	ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثا	وسيبقى هذا الحديث قديما

فإن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات العقول لا نهاية لها، لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر، وغير محال ولا مستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين. فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئا خطأ. والقول الصحيح هو : كم ترك الأول للآخر. ويقال لا كلمة أضر بالعلم من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئا، لأن هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلم على علم المتقدمين، ويقتصر الآخر على ما قدمه الأول وهو خطر عظيم، وقول سقيم. فالأوائل فازوا[298] باستخراج الأصول وتمهيد القواعد، والأواخر فازوا[299] بالاستنباط من[300] الأصول، وتشييد تلك القواعد وزيادة البناء عليها. وإن تصانيف العلوم كثيرة لاختلاف أغراض المصنفين وهي تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة أصناف. الأول مختصرات تجعل تذكرة لرؤوس المسائل، ينتفع بها المنتهي للاستحضار. وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء. والثاني مبسوطات تقابل المختصرات(28/ب)، وهي ينتفع بها للمطالعة. والثالث متوسطات ونفعها عام.

والتصنيف على سبعة أقسام، لا يصنف عالم عاقل إلا فيها، وهي إما شيء لم يسبق إليه، فيخترعه، أو شيء ناقص فيتمه[301]، أو شيء مغلق يشرحه ويبينه، أو شيء طويل يختصره، دون أن ينقص شيئا من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه فيصلحه. ويشترط في التصنيف إتمام الغرض الذي وضع الكتاب لأجله من غير زيادة ولا نقص. وعدم استعمال اللفظ الغريب إلا في

الرموز والألغاز. وينبغي أن يكون التصنيف مسوقا على حسب إدراك أهل الزمن، وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم. فإذا كانت الخواطر ثاقبة قام الاختصار لها مقام الإكثار، واستغنت بالتلويح عن التصريح، وإلا تكون الخواطر كذلك فلا بد لها من زيادة الكشف والبيان. وقد جرت عادة المصنفين أن يذكروا في صدور كتبهم أشياء سموها الرؤوس، منها الغرض والباعث الذي وقع التصنيف لأجله، ومنها المنفعة ليتشوق الطالب الناظر في التأليف إليها[302]، ومنها العنوان الدال على ما يأتي تفصيله. ومنها تسمية المؤلف نفسه ليعلم قدره في العلم، وغير هذا، والمصنفون على فرق منهم من له في العلم ملكة تامة ودراية كاملة، وفهم ثاقب، فتصنيف هذه الفرقة عن قوة بصيرة[303] ونفاذ فكر، وسداد رأي، ومنهم من له ذهن ثاقب، وعبارة سهلة، طالع الكتب، فاستخرج دررها، وأحسن نظمها، وهذا ينتفع به المبتدئون والمتوسطون، ومنهم من صنف وجمع ليفيد نفسه، لا لإفادة غيره، وهذا لا حجر عليه.

ويلزم كل مصنف إذا تمم ما صنفه أن لا يخرجه للناس، ولا يطرحه من يده إلا بعد تهذيبه وتنقيحه وإعادة مطالعته، فإنه قد قيل الإنسان في سعة وفي سلامة من أفواه جنسه ما لم يصنف كتابا أو يقل شعرا (29/أ). ويقال من ألف فقد استشرف (أي مد عنقه للمدح أو الذم)، فإن أحسن فقد استعطف (أي عطفت عليه القلوب)، وإن أساء فقد استقذف (أي عرض للقذف والشتم)، والعالم إذا أراد تصنيف كتاب بغير لغته، وبغير خطه اللذين[304] نشأ عليهما، وسبقت ملكتهما إليه ربما كان ذلك عسيرا في غاية الصعوبة. وأني لأتعجب وما تقضى عجبي من علماء فرنسا[305] وقدرتهم على هذا. فإن الله خصهم بمزيد ذكاء وفطنة، لأن مباحث العلوم إنما هي في المعاني، ولا بد في اقتناص المعاني من الألفاظ من معرفة[306] دلالتها اللفظية و الخطية عليها. وإذا كانت الملكة في الدلالة راسخة بحيث يتبادر المعاني إلى الذهن من الألفاظ زال الحجاب بين المعاني والفهم، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث. هذا شأن المعاني مع الألفاظ، والخط بالنسبة إلى كل لغة. فثبت أن اللغة ملكة في اللسان، والخط صناعة ملكتها في اليد. فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة السابقة، وفي اليد ملكة[307] غير الخط العربي، صار مقصرا في اللغة والخط العربيين، لأن الملكة إذا تقدمت في صناعة قل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم كما في الأصاغر من أبناء العرب والعجم.

وكان علماء الملة الإسلامية في صدر الإسلام غير مشتغلين بالتصنيف جارين على طريقة[308] الأول للاستغناء[309] بالحفظ. وكانوا يقولون إذا كتبنا اعتمدنا على

الكتابة، وتركنا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيتلف علمهم بتلف الكتاب. ويقولون أيضا الكتاب يمكن أن يزاد[310] وينقص منه ويغير. والذي يحفظ لا يمكن تغييره. ويحكي في هذا المعنى حكاية وقعت في[311] زمن المأمون العباسي، وذلك أنه جاءه (29/ب) يهودي يوما على[312] أنه يشتكي[313] من مظلمة ظلمها، فلما تكلم اليهودي تعجب المأمون من فصاحته، وبلاغته، وقوة قلبه، وظرافته، ولطافته، فعرض[314] عليه[315] الإسلام فامتنع، ثم بعد سنتين جاء مسلما إلى المأمون، فسأله عن سبب إسلامه، فقال له إني لما ذهبت من عندك قلت في نفسي اختبر الأديان، فعمدت إلى التوراة، فكتبت منه عدة نسخ فقدمت بعض الكلمات، وأخرت البعض. وأسقطت البعض، وذهبت بالنسخ إلى مجمع أحبار اليهود، فتساقطوا على النسخ واشتروها[316]، ثم عمدت إلى الإنجيل، وعملت به ما عملت بالتوراة، وذهبت بالنسخ إلى مجمع القسيسين فتساقطوا على النسخ واشتروها، ثم عمدت إلى القرآن وفعلت به ما فعلت بالتوراة والإنجيل، وذهبت بالنسخ إلى مجمع العلماء، فصار كل من يتصفح النسخ وينظر فيها يقول هذا ما هو قرآن ويرميها. فعلمت أن الكتب المنزلة كلها تقبل التبديل والتغيير إلا القرآن لكونه محفوظا في صدور أهله، فأسلمت لهذا السبب. ثم لما انتشر الإسلام، واتسعت مملكته، وحدثت الفتن، شرعوا في تدوين الحديث النبوي، وقوانين الشريعة، واشتغلوا بالنظر والاستدلال، والاستنباط، وتمهيد القواعد، والأصول، وترتيب الفوائد والفصول. وكان ذلك مصلحة عظيمة، ومع هذا فالسند عند علماء الإسلام شرط في العمل بما في الكتب والاحتجاج بها. والسند هو أن يعطي المصنف كتابه إلى آخر، ويقول له أذنت لك أن تروي عني هذا الكتاب و[317] يعطيه الذي أخذه عن المصنف إلى آخر بهذا الشرط. هكذا نسبة[318] كل علم.

وإذا عدم هذا السند في كتاب يكون غير معتبر، ولو تكون فيه العلوم الكثيرة، ولا يصح نسبة ما في الكتاب إلى من نسب إليه الكتاب[319] (30/أ) إلا بشرط السند. وهذا شيء خص به علماء الإسلام وشريعته. فإن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[320] رواها عنه العدول، ثم أخذها عن أولئك العدول عدول آخرون. وهكذا، حتى وصلت للبخاري مثلا وهو عدل ثم البخاري صنف كتابه ورواه عنه تسعون ألفا، ثم انتشر في المشرق والمغرب بالسند، حتى وصل إلينا.

وأما علوم الأوائل والفلاسفة فإنها كانت في صدر الإسلام مهجورة إلى دولة بني العباس، وكان أول من اعتنى منهم بالعلوم أبو جعفر المنصور، وكان مقدما في علم الفلسفة والنجوم[321]. ثم لما وصلت الخلافة إلى المأمون بن الرشيد، تمم ما بدأ به جده،

واستخرج العلم من معادنه، بعلوهمته. فراسل ملوك الروم، وسألهم كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه من كتب أفلاطون[322] وأرسطو، وبقراط، وجالينوس، واقليدس، وبطليموس وغيرهم. وأحضر لهذه الكتب مهرة المترجمين، فترجموا له على غاية ما أمكن. ثم ألزم الناس قراءتها، ورغبهم في تعلمها، إذ المقصود من المنع في صدر الإسلام، هو لأجل ضبط قواعد الشريعة، ورسوخ العقائد الصحيحة، وقد حصل ذلك، مع أن أكثر[323] الفلسفة والهيئة والهندسة، لا تعلق لها بالديانات. ولما نقلت علوم الأمم بالترجمة وحدثت الملكات لأهل الملة الإسلامية، نقلوا هذه العلوم إلى علومهم، وبقيت تلك الدفاتر التي باللغة الأعجمية نسيا منسيا، وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، واحتاج القائمون بها إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها (30/ب).

خاتمة الرسالة

في انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب

اعلموا أن الناس قسمان :قسم اعتنى بالعلوم، فظهرت منهم أنواع المعارف، فهم صفوة الله من خلقه، وقسم لم يعتن بالعلوم عناية يستحق بها اسمه. فالأول أمم، منهم الهند، والفرس، [324] واليونان، والروم، والإفرنج [325]، والعرب والعبرانيون، وأهل مصر والثاني بقية الأمم. أما الهند فإن أهله وإن كانوا في أول مراتب السواد، فإن الله جنبهم سوء أخلاق السودان، وفضلهم على كثير من البيض، فهم أهل الآراء الفاضلة، والأحلام الراجحة، ولهم التحقيق في علم العدد، والهندسة، والطب والنجوم، والعلم الطبيعي. ومنهم براهمة (فرقة قليلة العدد) ومذهبهم إبطال النبوات، وتحريم ذبح الحيوان، وهذا من ضعف أمزجتهم، وقلوبهم. فإن قوي القلب بحسب المزاج يستحسن الإيلام ولا يستقبحه. وجمهور الهند صابئة يعبدون الملائكة والكواكب، وهو ينكرون النبوات أيضا، ولهم في تعظيم الكواكب وأدوارها آراء ومذاهب. والمشهور في كتبهم مذهب السند هند (أي دهر الداهر)، ومذهب الارجهير، ومذهب الأركند، ولهم في الحساب والأخلاق، والموسيقى تأليفات كثيرة. ومن تصانيف حكماء الهند كتاب كليلة ودمنة، وما فيه من الحكم المنظومة بضرب الأمثال يشهد بكمال عقل واضعه (31/أ). وترجم من الهندية إلى الفارسية أيام أنوشروان الملك العادل. وكان محبا في العلم وأهله. ثم ترجم من الفارسية إلى العربية أيام المنصور العباسي، ترجمه ابن المقفع العالم المشهور. ويكفي أهل الهند شرفا وضع الشطرنج الذي سار في الدنيا سير الشمس، وصار الناس يشهدون بالعقل لمن يحسن اللعب به، فكيف بعقل واضعه ومستنبطه واسم واضعه صصه بن داهر. واسم الملك الذي وضع لأجله شهرام.

وكان أزدشير بن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة وضع النرد، وافتخرت الفرس به، فلما وضع صصه بن داهر الشطرنج حكمت حكماء ذلك العصر بترجيحه على النرد.

ولما عرضه على الملك شهرام أعجبه وفرح به كثيرا. وقال لصصه اطلب مني ما تريد من الأموال، فقال له طلبت أن تضع حبة قمح في البيت الأول، ولا تزال تضاعفها حتى تنتهي إلى الآخر، فمهما بلغ من القمح تعطيني. فاستصغر الملك ذلك وأنكر عليه لكونه طلب شيئا حقيرا عند الملك. وكان أضمر له شيئا كثيرا. فقال صصه ما أريد إلا هذا فراده[326] فيه وهو مصمم[327] عليه، فأجابه الملك إلى مطلوبه، فلما قيل لأرباب الأقلام احسبوه، فقالوا ما عندنا قمح، يفي بهذا ولا بما يقاربه. فلما أخبر الملك استنكر هذه المقالة، وأحضر أرباب الديوان، وسألهم، فقالوا له لو جمع كل قمح في الدنيا ما بلغ هذا القدر فطالبهم ببيانه فقعدوا له وحسبوه فظهر له صدق ذلك (31/ب) فقال الملك[328] لصصه أنت في طلبتك أعجب حالا من وضعك الشطرنج. ومن تأمل الشطرنج، وتأمل حركات قطعه وتفكر في صورة وضعه، وجده قد كشف عن سر من سر[329] القضاء والقدر بسهولة. وذلك أن الواضع له حكيم فيما رتبه[330] وقرره، ألهمه[331] تعالى ما قضاه[332] في أزله[333]، وسبق به علمه، وجرى بوضعه قدره، ولذلك لم[334] يشاركه في اختراعه له مشارك. وجعل أمر كل لاعب به من الناس راجعا[335] إليه، عائدا عليه. إن غلب فباجتهاده، وأن غلب فبتفريطه. وإن اللاعبين كليهما مع تفويض الأمر إليهما في الجد والاجتهاد، والفكر، والتدبر، والاكتساب، والتحليل، لا يخرجان في جميع ذلك عما قضاه الواضع، وقدره، وشرعه لهما، فهما مجبوران في صورة مختارين. اطلع هذا الواضع على سر عزيز من أسرار قدر[336] الله تعالى، وعلم إن الإنسان كاسب غانم أو معاقب، وإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وإن الله أراد من العباد ما هم فاعلون له، ولم يجبرهم، ولو عصمهم ما خالفوه، كما أراد الواضع من اللاعبين ما هم لاعبون[337] ولم يجبرهم. فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها. ولم يخرج واحد[338] منهما عما قدره من البيوت والقطع وعددها ونقلها، ولو أراد منهما غير ذلك ما خالفاه فافهم هذا جيدا، فالشطرنج مثال حكمي، ووضع علمي يجلب به حسن[339] الرأي، ويزداد به العقل، ويلهي به عن الهم، ويكشف (32/أ) عن مستور الأخلاق، ويحكي صورة الحرب، ويبين مقدار حلاوة الظفر بالخصم، والنصر على العدو، ومقدار مرارة القهر والخذلان، والشطرنج الكبير فيه من الزوائد جملان وزرافتان، وطليعتان، وذبابتان، ووزير.

وأما الفرس فإنهم أمة قديمة من أقدم أمم العالم أشدهم قوة واسم أبيهم بالعربية فارس وباليونانية يرشور[340]، وبالفارسية يرشيرش[341]. وكانت لهم دولتان عظيمتان طويلتان الأولى منها الكيية، وإنما قيل لهم كيية لأنهم كانوا يسمون الملك منهم كي فلان، ومعناه التنزيه أي مخلص متصل بالروحانيات، ويظهر من التواريخ أن مبدأها ومبدأ

دولة التبابعة ملوك العرب من حمير واحد، وهذه الدولة الكيية[342] هي التي غلب عليها الإسكندر اليوناني. والثانية الساسانية وهي المعاصرة لدولة الروم بالشام. وهذه الثانية هي التي غلب عليها المسلمون. وكان الفرس في أول أمرهم موحدين على دين نوح إلى زمن طهمورث، وهو أول من ذلّل الخيل وركبها، فاعتقد دين الصابئين، وقهر الفرس على اتباعه، وبقوا على هذا الدين نحو ألف سنة، إلى أن تمجسوا بسبب زرادشت، وكان ظهوره أيام يستاسف أحد ملوكهم، فجاء إلى يستاسف وعرض عليه دينه، فاعجبه وحمل الناس على الدخول فيه، وقتل من امتنع وجاء زرادشت بكتاب (32/ب) ادّعاه وحيا كتبه في اثني عشر ألف جلد، وسمي ذلك الكتاب سناه. ويدور على ستين حرفا من حروف المعجم وفسره زرادشت وسمى تفسيره زند، ثم فسر التفسير، وسماه زنده، وهذه اللفظة هي التي عربتها العرب فقالت[343] زنديق، وكان زرادشت يقول بالإهين اثنين يزدان، وأهرمن (أي النور والظلمة) ويعبد النار، وكان هذا الكتاب ثلاثة أقسام: قسم في أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم. وجدد زرادشت بيوت النيران، وكان أخمدها منوشهر أحد ملوكهم ورتب لهم عيدين النيروز في الاعتدال الربيعي، والمهرجان في الاعتدال الخريفي، ولما غلب الاسكندر الفرس الأولى أحرق هذه الكتب، وبقوا على ذلك إلى أيام سابور بن ازدشير فظهر[344] ماني الحكيم بعد المسيح.

وكان ماني يقول : موجد العالم اثنان : النور خالق الخير، والظلمة خالق الشر، واتبعه سابور قليلا، ثم رجع إلى المجوسية[345] دين آبائه، وفي أيام قباد من ملوك الفرس، ظهر مزدك، وكان يقول باستباحة أموال الناس، وإنها مشتركة بينهم وليس لواحد ملك شيء ولا تحجيره عن غيره. والأشياء كلها من ملك الله، لا يختص أحد بشيء. وفي أيام ابرويز منهم[346] وصلت جنود الفرس إلى بيت المقدس وأخذوا أسقفها ومن معه، وطالبوهم بخشبة الصليب، فاستخرجوها من الدفن، (33/أ) وبعثوا بها إلى ابرويز. وفي أيام بوران بنت ابرويز[347] ردت خشبة الصليب إلى الجاثليق[348].

وأمة الفرس هم أعدل الأمم، وأوسطهم دارا، بالنسبة إلى هذه المعمورة، ولهم عناية بالطب، وأحكام النجوم ولهم أرصاد ومذاهب في حركاتها. واتفق العلماء على أن أصح المذاهب في الأدوار مذهب الفرس، ومنهم واضع النرد، جعله مثالا للدنيا وأهلها ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، وجعل الفصوص مثلا للقدر وتقلبه بأهل الدنيا.

وأما اليونانيون فهم أمة عظيمة القدر، وهم منسوبون إلى يونان، وهو في التوراة ولد يافث بن نوح لصلبه. واسمه فيها يافان بفاء تقرب من الواو فعربته العرب إلى يونان، وبلادهم رومة ايليى، وأنا طولي، وقرمان، وإخوانهم اللطينيون مساكنهم بالقرب منهم[349]، ومن اليونان إسكندر[350] الذي قهر الملوك وغلبهم. يقال إنه استولى على خمسة وثلاثين ملكا. ومن اليونان الحكماء المشهورون، مثل أرسطو وهم معلم الإسكندر، وكان مسكنه مدينة أثينا، وهو كبير حكماء الخليقة من[351] غير منازع، أخذ عن أفلاطون اليوناني و[352] كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس فسمي تلاميذه بالمشائين، وأخذ أفلاطون عن سقراط، ويعرف بسقراط الدن، بسكناه في دن من الطين اتخذه، وقتله قومه لما نهاهم عن عبادة الأوثان، وكان هو أخذ الحكمة عن (33/ب) فيثاغورس منهم ويقال إن فيتاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية، وأخذ تاليس عن لقمان الحكيم المشهور، ومن حكماء اليونان ديمقراطيس وانكسا غورس[353].

وأرسطو هو الذي ترجم كتب هرمس المثلث بالنعمة، وأخرجها من اللسان المصري إلى اليوناني، وشرح ما فيها من العلوم والحكمة والطلسمات. وكتاب الاسطماطيس يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم، ومنها طلسمات لإنزال المطر، وجلب المياه، وكتاب[354] الاشطيرطاش في الاختبار[355] على سير القمر في المنازل والاتصالات، وكتب أخرى في منافع وخواص لأعضاء الحيوانات، والأحجار والأشجار والحشائش. ومنهم بندقليس[356]، وكان في عصر داود النبي.

وكان علماء اليونان يسمون فلاسفة الهيين[357] (ومعنى فلا بلغتهم الحب[358] وسوف: العلم، فمعنى فيلسوف : محب العلم)، ولهم تصانيف في أنواع العلوم، فهم أرفع الناس منزلة لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة، من العلوم الرياضية، والمنطقية والمعارف الطبيعية، وجميع العلوم العقلية، مأخوذة عنهم، وهم الذين أسسوها. وفي دولة فيلادلفوس[359] (أي محب أخيه[360])، كانت ترجمة التوراة، وكتب الأنبياء من العبرانية[361] إلى اليونانية. ولغة الأقدمين من اليونان تسمى الإغريقية وهي من أوسع اللغات 34/أ. ولغات المتأخرين تسمى اللطيني، لأن اليونان فرقتان اللطينيون والاغريقيون، وأما الروم وهم الكيتم اللطينيون فهم أخوان يونان ونسبهم إلى يافث بن[362] نوح، وبلادهم بالناحية الغربية من خليج القسطنطينية إلى بلاد الافرنك. وملك هذه الأمة قديم، وأول ملوكهم[363] القش بن شطرش بن أيوب[364]، وذلك في

آخر الألف الرابع من مبدأ الخليقة. ثم اتصل الملك لابنه ولحفيديه روملوس[365] وأملش، وهما اللذان اختطا مدينة رومه، وذلك لأربعة آلاف وخمسمائة من مبدأ الخليقة، وسميت باسم بانيها، وسمي أهلها الروم.

وكان الروم صابئة إلى أن قام قسطنطين المتدين[366] بدين المسيح وقهر الروم على الدخول فيه فأطاعوه. ولم يزل دين المسيح يقوى إلى أن دخل فيه جميع الأمم المجاورة للروم. وكان منهم حكماء وعلماء بأنواع الفلسفة. وكثير من الناس يقول إن الفلاسفة المشهورين روميون. والصحيح[367] أنهم يونانيون. ولتجاور الأمتين دخل بعضهم في بعض واختلط خبرهم. وكلا الأمتين مشهور العناية بالفلسفة إلا أن لليونانيين من المزية والفضل[368] ما لا ينكر ولغتهم مخالفة للغة اليونان.

وقيل إن[369] لغة اليونان الإغريقية، ولغة الروم اللطينية، ولهم قلم يعرف بالساميا في القديم ولا نظير له. فإن الحرف الواحد منه يحيط[370] بالمعاني الكثيرة، ويجمع عدة كلمات قال جالينوس في بعض كتبه كنت في (34/ب) مجلس عام فتكلمت في التشريح كلاما عاما، فلما كان بعد أيام لقيني صديق لي، فقال لي إن فلانا يحفظ عليك في مجلسك أنك تكلمت بكذا وكذا، وأعاد علي ألفاظي، فقلت من أين له[371] هذا، فقال إنه[372] يعرف قلما يسبقك بالكتابة في كلامك وهذا القلم يتعلمه[373] الخواص، ويمنع منه سائر الناس لجلالته.

وأما الفرنج، فهم من ولد يافث بن نوح، كان[374] يافث ولد سبعة من الولد منهم ريعات، ومنه الفرنج، كما في التوراة، ويقال لهم فرنسوس، وقاعدة بلادهم أفرنس (بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الراء المهملة، وسكون النون، وبالسين المهملة)، ويقولون أفرنك على وزن أفرنس، وكان أفرنس معرب من أفرنك، ويقولون أفرنج، (والكاف والقاف والجيم تتعاقب[375] في كلام العرب)، وملكهم يقال له الفرنسيس. وبلادهم بسائط على عدوة البحر الرومي وشماله[376]، وجزيرة الأندلس من ورائهم في الغرب[377] تفصل بينهم وبينها جبال متوعرة ذات مسالك ضيقة يسمونها البرت. وسكان تلك الجبال الجلالقة وهم من شعوب الفرنك. وكان الفرنسيس استولوا من الجزائر البحرية على صقلية، وقبرص، وأقريطش، وجنوة، واستولوا على قطعة من بلاد الأندلس إلى برشلونة، وعلى رومة[378].

وكان الإفرنج[379]، أيضا ملكوا إفريقية، ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة، وجلولا، وباغاية، ولمبس، وغيرها من الأمصار وغلبوا من كان بها من البربر، وأدوا إليهم (35/أ) الجباية وعسكروا معهم في حروبهم. ولم يكن للروم فيها ولاية. وإنما كان من كان منهم بإفريقية جندا للفرنج، ومن حشودهم، وكانوا ملكوا ما بين طنجة، وطرابلس الغرب. ومن الفرنج الملك[380] جرجير الذي قتله العرب أول دخولهم إفريقية سنة 27 من الهجرة. وكان قاعدة ملكه سبيطلة، وهي قبلة القيروان على مسافة يومين. وكان الفرنج بإفريقية يؤدون الخراج[381] إلى هرقل ملك القسطنطينية، لما كان الروم أغلب على الأمم المجاورة لهم من جميع الجهات إلى أن كان الملك جرجير، فخلع طاعة الروم، وضرب الدراهم[382] والدنانير على صورته، ولما دخل العرب إفريقية، وقتلوا الملك جرجير صار التغلب للبربر على الفرنج.

واجتمع البربر والفرنج[383] على قتال العرب، وما زالت الحرب[384] سجالا بينهم إلى سنة أربع وثمانين، فانهزم[385] البربر، والفرنج، هزيمة لم يقع لهم جمع بعدها فمن كان من الفرنج قريبا من البحر ركب إلى الأندلس، وإلى صقلية. وإلى سردانية[386] من الإفرنج الذين[387] كانوا بإفريقية. ومن كان[388] بعيدا من البحر، اختلط مع البربر، وصاروا جملة واحدة.

وفي جبل أوراس[389] كثير من الفرنج، ومن تأمل الآن سكان جبل أوراس فرق بين البربر والفرنج. ثم اشتغل العرب[390] بحرب الفرنج في الأندلس، والجزائر أيام عبد الرحمن الداخل الأموي وبنيه بالأندلس وعبد الله الشيعي وبنيه بإفريقية[391]، وملكوا عليهم[392] جزائر البحر (35/ب) الرومي، إلى آن فشلوا[393]، وركدت ريح الدولتين، وضعف ملك العرب، فاسترجعوا ما أخذه العرب[394]. ثم استفحل ملك افرانسا بعد القياصرة الأولى[395]. وكثرت عندهم العلوم الفلسفية[396] والمعارف، وتنافسوا في اكتساب الفضائل السياسية، فلم يبق لليونان والروم، ذكر في هذا الزمان[397]، لاسيما في عقد الستين بعد المائتين والألف، فقد جمعوا علوم جميع الأمم من العرب والعجم[398]، وتمم الله عليهم النعمة بسلطنة[399] الملك الشهير[400] العادل أعلى الملوك الإفرنجية[401] همة، وأبعدهم صيتا، وأنداهم[402] يدا وأطولهم سيفا[403]، نابليون الثالث، فإنه جمع كلمتهم بعد الشتات، وأحياهم بعد أن كادوا يصيرون من جملة الأموات، ووصل حبلهم بعد البتات، وأنامهم في مهد الأمان، بعدما كانوا لا يأمنون بيوتهم من العدوان، وأشاد لهم ذكرا، وإن لم يكونوا خاملين، إذ بعض الذكر أنبه من البعض عند العاقلين، وربحوا في يومه ما لم يربحوه في سنة غيره من الملوك، فله بذلك[404] منة[405]

عظمى عليهم[406] (36/أ)، ولكن لا يشكر النعمة من الناس[407]، إلا الأكياس، نسأل الله أن يجمع له بين خيري الدنيا والآخرة، وأن يكون له أول الأمر وآخره.

وأما العرب فهم من ولد سام بن نوح، وهم الأمة الرحالة[408]، الخيام لسكانهم، والخيل لركوبهم، والأنعام لكسبهم، يقومون عليها، ويقتاتون بألبانها[409]، ويتخذون اللباس والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقالهم على ظهورها، ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من الصيد، وقطع الطرق، والغارات على من جاورهم من الأمم. ومساكنهم ما بين البحر المحيط من الغرب[410] إلى أقصى اليمن، والهند من المشرق، وما بين ذلك، كمصر وصحارى برقة، وإفريقية، والزاب، والمغرب الأقصى، والسوس، فما[411] انتقلوا إلا[412] في المائة الخامسة[413] وكانت لهم دول عظيمة، وأثار كريمة. وصل ملكهم إلى طنجة من المغرب، وإلى سمرقند من المشرق في الجاهلية.

وكانوا في الجاهلية أصنافا، صنف اعترف بالخالق وأنكر البعث. وصنف عبدوا[414] الأصنام. وصنف عبدوا[415] الملائكة. وكان منهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة. وكانت بقيت[416] عندهم بقايا من دين إسماعيل بن إبراهيم الخليل، فكانوا لا ينكحون الأمهات، ولا البنات، ولا الأخوات، ولا يجمعون بين الأختين، وكانوا يحجون البيت، ويغتسلون من الجنابة، ويداومون على المضمضة، والاستنشاق، والسواك، والاستنجاء، ونتف الإبط، (36/ب) وحلق العانة والختان، ويقطعون يد السارق، ويعطون دية المقتول مائة من الإبل، ويطلقون، وتعتد المرأة التي مات زوجها سنة.

وكانت علومهم علم الأنساب والنجوم، وتعبير الرؤيا، ونظم الأشعار والخطب. وليس يصل إلى أحد من أهل المشرق والمغرب خبر[417] إلا بالعرب[418] وذلك أن من سكنوا مكة أحاطوا بأخبار أهل الكتابين التوراة والإنجيل، ومن سكن الحيرة، علم أخبار[419] فارس. ومن سكن الشام عرف أخبار الروم، واليونان، وبني إسرائيل. ومن سكن البحرين، علم أخبار الهند والسند، وكانوا يفتخرون بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق والوفاء بالعهد، وإكرام الضيوف، وعلو الهمة.

روي عن شبيب بن شبة[420]، قال كنا في مجلس عظيم، فورد علينا ابن المقفع، وكان من أشراف الفرس وحكمائهم، فقال لنا من أعقل الأمم؟ فنظر بعضنا إلى بعض. وقلنا لعله يميل إلى أصله، فقلنا الفرس، قال ليسوا هناك. ملكوا كثيرا من

الأرض، وحووا عظيما من الملك، فما استنبطوا بعقولهم شيئا. فقلنا الروم، فقال أصحاب صنعة فقلنا الصين، فقال أصحاب ظرفة[421]. فقلنا الهند، فقال أصحاب فلسفة، فقلنا السودان فقال أشر خلق الله. فقلنا الترك فقال كلاب مختلسة، فقلنا الخزر، فقال نعم سائمة. فقلنا فمن ؟ قال العرب، فضحكنا فقال ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسب، فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكت على غير مثال. يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة (37/أ) ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، رفعتهم عقولهم وأعزتهم[422] هممهم، حتى نالوا أكرم الفخر، وبلغوا أشرف الذكر. فلما شرفهم الله بالرسول محمد بن عبد الله صلى[423] الله عليه وسلم، وهم على هذه الأخلاق الجميلة، والفضائل الجليلة، تنافسوا في زيادة الفضائل، وتسابقوا إلى نيل العلوم والمعارف. فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه الأوائل، وأثروا الآثار العظيمة في أقرب مدة من بناء المدائن وعمل القناطر[424]، وفتح الخلجان.

فقد أجرى موسى بن نصير البحر اثنى عشر ميلا إلى دار الصناعة بتونس، وصنع مائة مركب، وغزا صقلية وأخذها ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم في مدة سنة وجرت فيه السفن من خلافة عمر بن الخطاب إلى ما[425] بعد خلافة عمر بن عبد العزيز احتفره من الخليج الذي في ناحية الفسطاط، يقال له خليج أمير المؤمنين، وساقه إلى القلزم، ثم ضيعه الولاة وترك وغلب عليه الرمل، وانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح.

وتيسر لهم من التصنيف في أنواع العلوم، ما لم يتيسر لأحد قبلهم. حتى إن منهم من بلغت تصانيفه في أنواع العلوم ثلاثة الآف مصنف وزيادة. يحكى أن خزانة الكتب بمصر في دولة العبيديين بلغت ألفي ألف مصنف وستمائة (37/ب) ألف مصنف. وفي بعض التصانيف مائة مجلد إلى ثلاثمائة مجلد كتفسير الرازي وغيره. وبلغ ملكهم حيث لم يبلغ ملك أمة قبلهم من آدم إلى الآن، ثم بدأ فيهم النقص وغير الله بهم حيث غيروا ما[426] بأنفسهم شأن الأمم وكل شيء بلغ الحد انتهى.

إذا تم شيء بدا نقصه   فحاذر زوالا إذا قيل تم

وأما العبرانيون، وهم بنو إسرائيل، عنصر الأنبياء، فكانت عنايتهم بعلوم الشرائع وسير الأنبياء، فكان علماؤهم أعلم الناس بأخبار الأنبياء، وبدء الخليقة، لكنهم لم يشتهروا بعلم الفلسفة.

وأما أهل مصر فهم اخلاط من الأمم، إلا أن أكثرهم قبط، وإنما اختلطوا[427] بكثرة من تداول ملك مصر من الأمم، كالعمالقة[428] واليونان، والروم، فانتسبوا إلى موضعهم فكانوا[429] في القديم صابئة، ثم تنصروا إلى وقت الإسلام، وكان لقدمائهم عناية بأنواع العلوم، ومنهم هرمس. كان قبل الطوفان، وكان بعده علماء بضروب الفلسفة، وعلم الطلسمات، والمرايا المحرقة والكيمياء. وكانت دار العلم بها مدينة منف، فلما بني الإسكندر مدينة[430] الإسكندرية رغب الناس في عمارتها، فكانت دار العلم والحكمة إلى الفتح الإسلامي.

والسبب الظاهر بحسب العادة التي أجراها الله تعالى، وبما دل عليه الاستقراء في اختلاف الناس في عقولهم وأخلاقهم ومعارفهم، أحوال الشمس في الحركة. فإن الناس على ثلاثة أقسام معتبرة، وفي كل قسم أقسام متقاربة (38/أ). أحدها الذين يسكنون تحت خط الاستواء إلى ما يقرب من المواضع التي يحاذيها ممر رأس السرطان، وهؤلاء أضعف الناس عقلا، وأوحشهم أخلاقا، وأبعدهم عن المعارف العقلية والكمالات الإنسانية.

وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممر رأس السرطان فعقولهم أكمل من الذين قبلهم، وطبائعهم معتدلة، وأخلاقهم مؤنسة، كالهند، واليمن وبلاد العرب كلها، وبعض المغاربة.

وأما القسم الثاني، فهم الذين يسكنون على راس ممر السرطان، إلى محاذاة بنات نعش الكبرى، وهم سكان وسط المعمورة من هذه الأرض، فهم أكمل الناس عقلا، وألطفهم اذهانا كأهل العراق، والشام وخراسان[431]، وأصبهان، وهم مختلفون في الكمال، وأكملهم عقلا، وأكثرهم قبولا للمعارف سكان الموضع المعروف بإيران شهر. ويليهم في الكمال سكان افرنس، فإنهم وسط الإقليم الخامس، ويليهم في الكمال أهل الأندلس، فإن بلادهم أخذت من الإقليم الخامس والسادس.

وأما القسم الثالث من سكان الأرض، فهم الذين مساكنهم محاذية لبنات نعش، وهم الروس، والصقالبة فعقولهم ناقصة، وأخلاقهم وحشية، وأذهانهم باردة، بعيدة عن قبول الكمال وهم متفاوتون في النقصان، فبعضهم أنقص من بعض، والكمال الحقيقي لله تعالى وحده وكل كمال إذا نسب إليه تعالى، فهو نقص[432].

انتهى ما أردناه من هذه العجالة، وكان الفراغ من تسويدها في يوم الاثنين من رمضان[433] سنة 1271 هجرية[434]، والحمد لله، أولا، وآخرا، وظاهرا وباطنا.

المراجع

1 - ذكرى العاقل ص 1
Gustave Dugat - 2
Rappel à l'intelligent, avis à l'indifférent - 3
René Khawam - 4
Lettre aux français - 5
6 - المصدر نفسه ص 12.
7 - المصدر نفسه ص 7.
8 - المصدر نفسه ص 23، 25.
9 - المصدر نفسه ص 29.
10 - المصدر نفسه ص 41.
11 - المصدر نفسه ص 47
12 - المصدر نفسه ص 50–51.
Le Baron de Slane, catalogue des manuscrits arabes, Paris, 1883-1885 p 411 - 13
Le Moniteur - 14
Reinaud - 15
Dugat - 16
17 - ج: وآله
18 - ب: قال الإمام العارف بالله أبو محمد السيد الحاج عبد القادر
19 - ب: – بن عبد القادر
20 - ب، ج: – بن أحمد
21 - حلية البشر + الأصغر بن إدريس الأكبر
22 - ج: + الرسالة
23 - ب: اعتقادهم فيه.
24 - ب، ج: ملبسا.
25 - ب: –"من الناس"
26 - ب، ج: فتقليد الكتب مذموم "بزيادة مذموم" وحذف "الذم".
27 - ب: تنقاد.
28 - ب: لا ينجلي.
29 - ب، ج: لكدرات
30 - ب: الحقيقية.
31 - ب: المتجر الفكر
32 - أ، ب، ج: عن
33 - ب: بالتدبر
34 - ب: الناس

35 - ب : ثم
36 - ب : جفاء تلك الخصية
37 - ب، ج : هي الحقيقة
38 - ب : لا نشارات
39 - ب : – "له"
40 - أ : – وقوله
41 - ب : ولا خفاء
42 - ب : "و" زائدة بعد "جسمانية"
43 - ب : والمال.
44 - ب : – "مر"
45 - ب، ج : "يرا" مكان "يجد"
46 - ب : – "لا"
47 - ب، ج : بها
48 - ب : غيره.
49 - ج : حكما.
50 - ب : زيادته فيها، ج : زيادته فيما.
51 - ب : – "بمعنى"
52 - ج : زائدة
53 - ب : – "يرغب فيه. ج : – والي ما يطلب ويرغب فيه لذاته.
54 - ب : – والي ما يطلب ويرغب فيه.
55 - ب، ج : الترك.
56 - ب، ج : و أجلاف العرب.
57 - ب : التجاريب.
58 - ب : وبيان.
59 - ب : – "ينتظم".
60 - ب : – "الا بها".
61 - ب : "الساسة".
62 - ب، ج : – "أمر"
63 - ب : هيأة.
64 - ج : متممت.
65 - ب : – "الخياطة".
66 - أ : – وأشرف أصولها السياسة.
67 - ج : – سياسة.
68 - ب، ج : فانية
69 - ب : الموجود
70 - ب : ظاهرة
71 - أ، ب : وهذا.
72 - ب، ج : للحس
73 - ب : كان
74 - ب : أكثر
75 - ب : وذبحا.

76 - ب : إذ.
77 - ب : – يدركه.
78 - ب : إذ
79 - ب : التميز
80 - ب، ج : السابوع.
81 - ب : أهل الله.
82 - ب : ينتبه بنفسه.
83 - ب : لكثرة.
84 - ب : هناك.
85 - ب : ينقها.
86 - سقطت هذه الفقرة التي هي بين قوسين من "ج".
87 - ب، ج : يحملهما.
88 - ب، ج : تأدب.
89 - ب : الأربع.
90 - ب : زيدت هذه العبارة "ومن تعرى عن هذه الأربعة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين العباد ويطرد من البلاد".
91 - ب : ذلك.
92 - ب : الجدرات.
93 - ب: الجدرات.
94 - ب : فلا
95 - ب : – مر.
96 - ب : لأن العبادة.
97 - أ : يفرق.
98 - أ، ج : اكرم.
99 - ب : – "و".
100 - ب، ج : – "فلانها"
101 - ب : مغاير.
102 - ب، ج : فلان.
103 - ب : أوخر
104 - ج : الإحساس لا حساس
105 - أ : – "وهكذا كل تعقل حاصل فإنه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر".
106 - ب : –الإدراك.
107 - ب : تناولت.
108 - ب : وازوجت.
109 - ب : نتاج.
110 - ب : يتمادى.
111 - ب، ج : وهو.
112 - ب : نتاج.
113 - ب : – "قد".
114 - ب : لها.
115 - ب : – من.

116 - ب : – العملي.
117 - ب : إنه.
118 - ب : – "و".
119 - ب : – "ثانية".
120 - ب : للعامة.
121 - ب : –:لهما".
122 - ب : – "عرضا".
123 - ب : يخلق.
124 - ج : الصناعات.
125 - ج : – الحجامة.
126 - ج : فالذي.
127 - ب، ج : الأراضي.
128 - ب : على.
129 - ب، ج : بالاجتماع إلى علوم.
130 - ب : التي تعرف بها.
131 - ب، ج : لتتمكن.
132 - ب : مك.
133 - ج : – بالسيوف.
134 - ب : لا تكن.
135 - ب : يكتسب.
136 - ب، ج : و التدبير.
137 - ب ، ج : وقيل.
138 - ب : عليهم.
139 - ب : – "إلا"
140 - ج : الدنيا.
141 - ب، ج : من العلوم
142 - أ، ب : –و.
143 - أ، ب : – ليست.
144 - ج : السحارة.
145 - ب : النفسية.
146 - ب ، ج : و المنازل.
147 - ج : التنور.
148 - ب، ج : في استدلاله.
149 - ب : يستحدث.
150 - أ : المنازل.
151 - ب، ج : فيتضرر به.
152 - أ، ب : إياه.
153 - ب : حيز.
154 - ج : من.
155 - ب، ج : + "الله".
156 - ب : التميز.

157 - ب : لا يوجد منها شيء.
158 - أ، ب : –و.
159 - ب، ج : –"أن الشخص الواحد".
160 - ب : كان.
161 - ب : إلى خواص معرفة الأدوية.
162 - ب، ج : يدعي.
163 - ب : فإنهم، فإن قالوا.
164 - ب : سعادة.
165 - ب : –"و".
166 - ب : – :بزيادة".
167 - ب : –"له".
168 - ب، ج : ولا تشرب.
169 - ب، ج : ولا ينازعني أحد فيه
170 - ب : تعامل.
171 - ج : شيء.
172 - أ، ب : لأجلهما.
173 - ب : يساوي.
174 - ج : – لا.
175 - ب : حكمين.
176 - ج : تستوي.
177 - ج : فذلك.
178 - ب : التسامح.
179 - ج : أو.
180 - ب : +"أو".
181 - ب : التبذير.
182 - ب : ولا يكفي الحديد والطين.
183 - ج : + بزيادة.
184 - ج : – أ.
185 - ج : – بزيادة.
186 - ج : + أ.
187 - ب : أقول.
188 - ج : تفتح.
189 - ب : كعز.
190 - ج : عنه.
191 - ب : الموسيقا.
192 - ب : – على.
193 - ج : + و.
194 - ب، ج : + عليه.
195 - ج : النبؤة.
196 - ج : للنبوءة.
197 - ب : أمورات.

198 - ب : عن.
199 - ب : معاريف.
200 - ب : كعلمي.
201 - ب : – "ما".
202 - ب : من هذا.
203 - ب : الخواص.
204 - ب : دانيق.
205 - ب، ج : تبريدهما.
206 - ب، ج : يوضع في بلدة.
207 - ب : الملبدة.
208 - ب : بلا.
209 - ب : – تعالى.
210 - ب : إننا.
211 - ج : أحدهما.
212 - ب : بل.
213 - ب، ج : في نفسه.
214 - ب : فعل فاعل.
215 - ب : – من
216 - ب، ج : أو.
217 - ج : يعرفوا.
218 - ج : سيرتهم.
219 - ب : مما يدل على صدقهم.
220 - ب : وافريقية.
221 - ج : تثبت.
222 - ج : وتعرفون.
223 - ب، ج : – "تعالى".
224 - ب : حفظ الدين.
225 - ب : الوضيعة.
226 - ج : القونين.
227 - أ، ب : الوقت.
228 - ب : وفي وقت.
229 - ج : تفاوة.
230 - ج : وصف.
231 - ب، ج : – "فانكروا الإنجيل".
232 - أ : وإن لم يكن.
233 - ج : – فيه.
234 - ج : –إلا إن فيه إشارة لنسخ بعض أحكامها
235 - ب : – " أحكامها".
236 - ب، ج : فقالت اليهود.
237 - ج : + عليه.
238 - ب، ج : أكل الخنزير وكان حراما في التوراة

239 - ب : – "من".
240 - ب، ج : أما إنه كان.
241 - ج : إبطال.
242 - ب : + "والأذن بالأذن، والسن بالسن".
243 - ج : – صلى الله عليه وسلم.
244 - ب : عملية.
245 - ب : فلا يجيء بعد محمد نبي غير المسيح.
246 - ب : عيسوي.
247 - ج : المسلمين، وصححها السيد رينو (Reinaud) في الهامش
248 - ج : بمجرد
249 - ب، ج : بل يظهر له الحق.
250 - ب : علوم الحساب والنجم.
251 - ج : – كل.
252 - ب، ج : كورية.
253 - ب : وبين السماء.
254 - ب، ج : + وإن كسوف الشمس بسبب وقوف جرم القمر بين الناظرين وبين الشمس
255 - ب، ج : – غير"
256 - ب : – "حذره".
257 - ب : يشرى.
258 - ج : – أمور
259 - ب : دواء علته.
260 - ب، ج : و المريض.
261 - ج : – و.
262 - ب، ج : – الإنسان.
263 - ج : لذلك.
264 - ب، ج : فذلك.
265 - ب : أنهى.
266 - لم يثبت أن الإسلام نهى عن تعليم المرأة الكتابة وما روي في ذلك فليس له سند يعتمد عليه.
267 ب : النفس.
268 - ب : أو زيادة.
269 - ج : لزم.
270 - ب، ج : بهذه.
271 - ب، ج : وأثبته.
272 - ب، ج : بالتاء المثناة من فوق.
273 - ب، ج : و آخرهم.
274 - ج : النفوس.
275 - ب، ج : ملك.
276 - ج : زمن.
277 - ب، ج : الزم.
278 - ب : في الأصل تعليق نصه، الذي أحدث النقط في الخط العربي هو الإمام الخليل بن أحمد ولذلك لقب بناصر الحروف. انتهى.

279 - ب، ج : الأمويين.
280 - ب، ج : فيهم.
281 - ب، ج : فلا يتعلمها.
282 - ج : الغرب.
283 - ب، ج : شمر.
284 - ب، ج : + "باليمن".
285 - ج : ألفان وعشرون.
286 - ج : الهجاء.
287 - ج : والبسريانية.
288 - ج : اللغات.
289 - ب : والحاء المهملة.
290 - ب، ج : وضع.
291 - ج : وكان صور.
292 - ب، ج : كتابة
293 - ب، ج : من اليمين إلى اليسار.
294 - ج : الكاتب
295 - ج : أن يبتدئ
296 - ج : تلا
297 - ب، ج : - "حرفا".
298 - ب: - فازوا.
299 - ب : - فازوا.
300ى ب، ج : + "تلك".
301 - ب، ج : يتمه.
302 - ب : - "إليها".
303 - ب، ج : تبصرة.
304 - أ، ب : الذي.
305 - ج : أفرنس.
306 - ج : معرفته.
307 - ب، ج : + ملكة.
308 - ج: طريق.
309 - ب، ج : في الاستغناء.
310 - ب : أو ينقص : + فيه
311 - ج : - في.
312 - ج : - على.
313 - ب : - "يشتكي".
314 - ب، ج : فاعرض.
315 - ج : + المأمون.
316 - ب، ج : + مني.
317 - ب، ج : أو يعطيه.
318 - ب، ج : وهكذا في كل علم.
319 - ج : من نسب الكتاب إليه.

320 - ج : –صلى الله عليه وسلم.
321 - ج : والنجم.
322 - ج : الفلاطون
323 - ب : كثرة.
324 - ب : ثم اليونان.
325 - ب، ج : و الفرنج.
326 - ب: فزاده.
327 - ج : صصر.
328 - ب، ج : + شهرام.
329 - ب، ج : – "سر".
330 - ب، قدره.
331 - ج : – ألهمه تعالى.
332 - ب، ج : وأمضاه وقضاه.
333 - ج : – في أزله.
334 - ب، ج : ولم يشاركه.
335 - ج : راجع ...وعائد.
336 - ج : – قدر
337 - ب، ج : لا عبونه.
338 - ب : أحد
339 - ب، ج : – "حسن".
340 - ب، ج : يرشرور.
341 - ب، ج : يريشرس
342 - ج : الكبيرة.
343 - ج : – فقالت.
344 - ب، ج : ظهر.
345 - ج : الماجوسية.
346 - ج : – منهم.
347 - ج : – ابروز.
348 - ب : ملك الروم.
349 - ب : – "منهم".
350 - ج : الإسكندر.
351 - ب، ج : – "من".
352 - ج : – و.
353 - ب، ج : – وانكسا غروش.
354 - ب : – "وكتاب".
355 - ج : الاختبارات.
356 - بندقيلس.
357 - ب، ج : الهيون.
358 - ب، ج : المحب
359 - ب، ج : فلديفش.
360 - ب، ج : من اليونانيين كانت ترجمة التوراة من اللسان العبراني إلى اللسان الرومي و اللتيني على الصحيح وقيل في دولة غيلا فادوس (أي محب أخيه) كانت ترجمة إلخ...

361 - ب ، ج : السريانية.
362 - ج : + بن علجان.
363 - ج : للقش.
364 - ب، ج : بن يوب.
365 - ب : رملش، ج : روملوش.
366 - ب، ج : المظفر.
367 - ب : الصحيح.
368 - ب، ج : و التفضل.
369 - ج : - ان.
370 - ب : محيط.
371 - ب، ج : لك.
372 - ب، ج : إني أعرف.
373 - ج : ينقله.
374 - ب، ج : لأن.
375 - ب، ج : يتعاقبون.
376 - ب، ج : من شماله.
377 - ج : في المغرب.
378 - ج : رومية.
379 - ج : الفرنج.
380 - ب : المسمى.
381 - أ، ب : - الخراج.
382 - ج : الدراهيم.
383 - ج : والإفرنج.
384 - ج : الحرب بينهما سجالا.
385 - ج : انهزم.
386 - ج : + وجميع أهل سردانية.
387 - أ : الذي.
388 - ب : بعدا.
389 - ب : في أوراس.
390 - ج : الإفرنج بحرب العرب.
391 - ب : - بإفريقية
392 - ج : - عليهم.
393 - ب، ج : فشل ريح الدولتين.
394 - ج : + و.
395 - ب، ج : - بعد القياصرة الأولى. ج + وصاروا لا يدانيهم أحد من ملوك العجم والعرب، وخضعت لهم الأمم.
396 - ج : - الفلسفية.
397 - ب : + صاروا كما قيل الصيد كله في جوف الفراء. ج : + وصار أهل افرنس قدوة لجميع الناس في العلوم والعرفان.
398 - ج : + حتى صاروا كما قيل الصيد كله في جوف الفراء.
399 - ب : - بسلطة.
400 - ب، ج : - الشهير.

401 - ج : – الافرنجية.
402 - ج : وأقوالهم.
403 - ب، ج : + وأشفقهم على عباد الله، وأحبهم إلى الخلق من العرب و العجم وما هو إلا كما قيل :
ليس على الله بستنكر أن يجمع العالم في واحد
ذلك الملك المؤيد المظفر.
404 - ب، ج : – "بذلك".
405 - ج : المنة.
406 - ب، ج : على الناس.
407 - ب، ج : – "من الناس".
408 - ب، ج : أهل الخيام.
409 - ب: ألبانها، ج : من ألبانها.
410 - ج : المغرب.
411 - ب : – فما، ج : مما.
412 - ب : – "إلا".
413 - ب : – "الخامسة".
414 - ب : عبد.
415 - ب : عبد.
416 - ب، ج : بقت.
417 - ج : + خبر.
418 - ج : – خبر.
419 - ب، ج : أهل
420 - ج : شبيبة.
421 - ب : ظرافة.
422 - ج : وعزتهم.
423 - ب، ج : – "صلى الله عليه وسلم".
424 - ب : القناطير.
425 - ب، ج : – "ما".
426 - ب، ج : – "ما".
427 - ج : لكثرة.
428 - أ، ب : عمالقة.
429 - ج : وكانوا.
430 - ب، ج : مدينته.
431 - ج : خرسان.
432 - ج : + والحمد لله رب العالمين، وهذا آخر ما أردناه من هذه العجالة المباركة ووافق الفراغ من تسويدها وتبييضها في يوم الأحد الثاني عشر من رمضان سنة 1271 ألف ومائتين واحد وسبعين هـ وعلق السيد (Reinaud) في الهامش بما يلي : 7 ماي 1855 بالتاريخ الميلادي. وكتب اسمه تحت التعليق.
433 - ب : + من.
434 - ب : من هجرة من له العز والشرف محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وجميع النبيئين والملائكة وسلم. أ : + ونقلها لنفسه ولمن شاء الله من بعده من خط العلامة السيد قدور بن رويلة الجزائري، وهو نقلها من خط مؤلفها عبد ربه الغالب محمد بن أحمد بن أبي طالب الحسني، وكان الفراغ من نقلها يوم الخميس العشرين من رمضان المعظم سنة ثمانية وسبعين ومائتين وألف، انتهى، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ورضي الله عن العلماء العاملين.

الفهرس

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

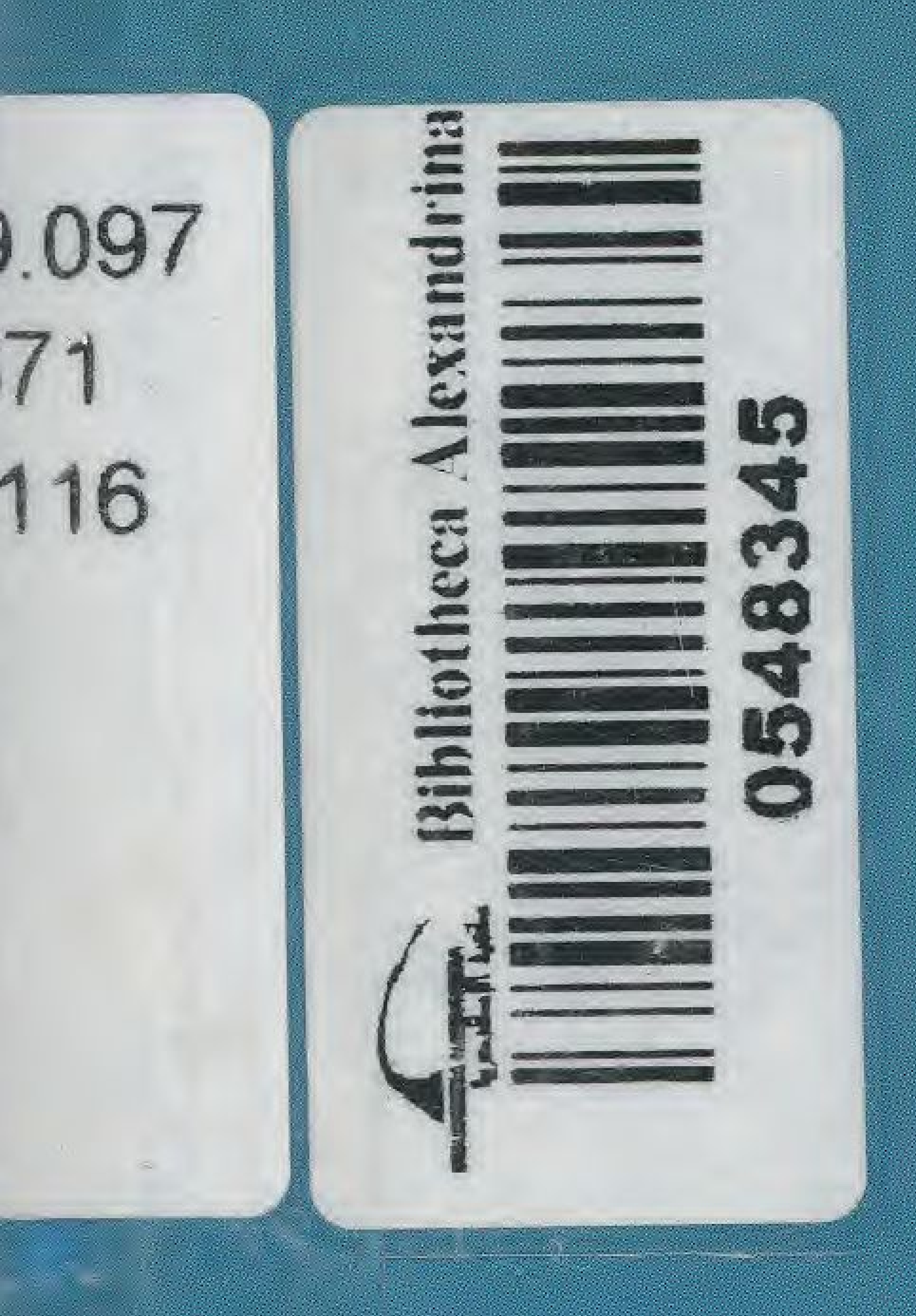
Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

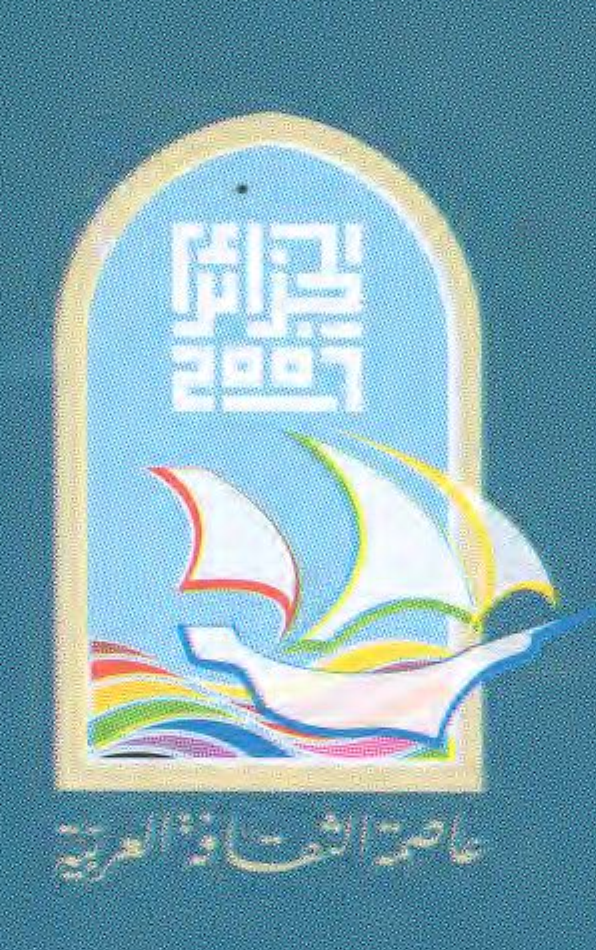
سلسلة
التراث

رسالة إلى الفرنسيين

لقد وضع الأمير عبد القادر، بالتلميح وبصفة ضمنية حقا، المعالم الأساسية لحداثة إنسية قادرة، في الآن نفسه، على إضفاء السحر على العالم مجددا وعلى اطراد تطوير ملكات التجديد والإبداع. وهو، بهذا، واحد من رواد نهضة الحضارة الإسلامية التي لا تزال في أولى بداياتها، تعتريها غالبا الاختلاجات، والتي تعتزم بلادنا أن تكون حلقة من حلقاتها الفعالة في الحوار الجاد والسخي مع سائر الحضارات.

مقتطف من التصدير





ISBN: 9947-21-232-7